

مكتبة إحسان عبد القدوس الكاملة



لا تتركونى هنا وحدى

إحسان عبد القدوس

إحسان عبد القدوس

لا تتركونى هنا وحدى



إلى ...

إلى السيدة التى تحمل اسما ليس اسمها .. وقد قضت عشر سنوات من عمرها وهى تحكى .. غفر الله لها فقد حكت.. وغفر الله لى فقد كتبت .

إحسان

كلمة

انتهيت من كتابة هذه القصة في أوائل شهر يناير ١٩٧٩ ، أى قبل أن توقع معاهدة السلام وقبل أن تفتح الحدود بين مصر وإسرائيل وهو ما يمكن أن يكون له أثر كبير في وضع المجتمع اليهودى الذى يعيش فى مصر .. ولم أفكر فى أن أعدل من القصة بحيث تعيش داخل الأحداث الجديدة، لأن القصة لا تمثل واقعا قائما ولكنها تمثل مرحلة مرت بالمجتمع المصرى ..

وليست هذه أول قصة أكتبها وأنشرها عن المجتمع اليهودى المصرى .. ربما كانت ثالث أو رابع قصة، فقد عشت هذا المجتمع منذ كنت أعيش صباى وشبابى فى حى العباسية الملاصق لحي الظاهر الذى كان يضم أغلبية من السكان اليهود .. وكان لى من بينهم أصدقاء وصديقات كثيرون .. ثم عشت مرحلة من صباى فى حارة اليهود عندما كنت طالبا فى المدرسة الثانوية وكنت أيام الأجازة أعمل بائعا فى محل تجارة «بدل وبلاطى» يملكه صديقى المرحوم محمد عبد الهادى بشارع الموسكى وكان يزاملنى فى العمل موظف يهودى اسمه ساسون كان يصحبنى كثيرا لزيارة عائلته فى بيته بحارة اليهود .. وبعد ذلك كبرت وعملت وجمعنى العمل بكثير من الأصدقاء اليهود كان من بينهم ثلاثة معى فى روز اليوسف

وقد هاجر ثلاثتهم إلى إسرائيل .. وهو ما سردته فى قصة « أين ذهبت صديقتى اليهودية » التى نشرت فى الأهرام منذ أكثر من ثلاث سنوات ..

أريد أن أقول أن هذه القصة ليست من وحى المناسبة السياسية التى مررنا بها .. ولكنها من وحى مجتمع عشت فيه .

إحسان

١

طوت زينب أوراق الجريدة اليومية بين يديها والقت بها على الأرض فى عصبية وهى تقول لنفسها .. لا أمل .. هذا الرجل لا يمكن أن يحل مشكلة .. إنه يخلق المشاكل ويعيشها .. أنه يموت لو وجد نفسه بلا مشكلة .. إنى أعرفه ..

ومدت زينب يدها إلى الراديو وأخذت تقلب بين المحطات حتى وقفت عند محطة إذاعة إسرائيل .. وانطلقت مع أذنيها تستمع إلى نشرة الأخبار .. وتردد بينها وبين نفسها .. طبعا.. لا أمل .. لقد كنا نعيش الأوهام لا الآمال .. لن أكون أبدا هناك .. ممنوع .. ممنوع .. ممنوع الحب .

وعادت تقلب مفتاح الراديو فى عصبية كأنها تهرب من إسرائيل .. ثم توقفت بالراديو عند محطة اذاعة أم كلثوم وكانت تغنى .. أنساك يا سلام .. أهو ده اللى مش ممكن أبدا .. وسقط رأسها فوق صدرها .. وسقطت دمعتان صامتتان على خديها .. ثم تنهدت تنهيدة عميقة كأنها تشد بها ما فيها كله وقامت مستندة على عصا تشد وراءها ساقها المريضة وألقت نفسها فوق الفراش .. لعلها تنام ..

وكانت زينب يهودية مسلمة ..

وليس فى هذا التعبير أى تناقض فصفة اليـهودية بعد كل هذه المئات من السنين التاريخية الشاذة وكل هذه الاحداث التى عاشـها اليـهود لم تعد ـ أى اليهـودية ـ صفـة دينية ولكنـها أصـبحت تعـبر عن شـخصـية .. أى أن اليـهودية ليـست دينا ولكنها شـخصية .. وهى شـخصيـة تتغلب على أى شخصـية أخرى يمكـن أن ينتسب إليهـا اليهـودى .. فاليـهودى هو أولا يهودى وبعد ذلك يمكن أن يكون أى شىء .. كأن يكون يهوديا فرنسيا .. أو يهوديا أمريكيا .. أو يهوديا روسيا .. ومهما تنقل من جنسية إلى جنسية فـهو أولا يهودى .. وكذلك لو تنقل من دين إلى دين .. فلو اعتـنق المسيحـية فهو يهودى مسـيحى .. ولو اعـتنق البوذية فـهو يهـودى بوذى .. وقد اعـتنقت زينب الإسلام فـأصبحت يهـودية مسلمة .. وربما كـانت زينب تبالغ فى اتباع كل شعائر وتقاليد الإسلام ولكن الشخصية اليهودية ظلت دائما هى الطابع المسـيطر عليها .. الشخـصية التى ترسم اتجاه فكرها وانطلاقات أحاسيسها وعواطفها وترسم خطواتها وتصرفـاتها وحتى اختيار كلماتهـا وتضعهـا فى العالم الذى يتمـيز به اليـهود .. عالم الطمـوح الذى لا نهاية له .. والصـبر الذى لا ينتـهى أبدا .. والذكـاء الصـامت الذى يتـعـمد اخـفـاء نفسه ..

متى أسلمت ..

ومتى أصبحت زينب ..

زمـان .. فى منتصف الأربعـينيـات .. كان اسـمهـا لوسى

والاسم الكامل لوسـيان هنيـدى .. وكانت مـتزوجـة من زكى راؤول وأنجبت منه ابنها ايزاك وابنتهـا ياسمين .. العائلة كلها يهودية ومن سلالة يهود منذ أيام سيدنا موسـى ..

وهى عائلة متواضعة تقيم فى شقة بحى الظاهر وليست من العائلات اليـهودية الغنية التى كـانت تلمع فى مصر كـعائلات كوريل وقطاوى وباروخ وشكوريل وموصيرى و..و..و..



وكـانت لوسى تلوم نفـسهـا دائمـا لأنهـا هى التى أخطأت واخـتارت هذا المسـتوى الفـقيـر الذى تعيش فـيه هى وابنهـا وابنتها .. إنهـا جميلة .. تمتاز بنوع خاص من الجمـال المثير.. فقـامتهـا قصيـرة ولكنها تبرز جـميع خطوط جـسدها ابرازا

مثيرا .. نهداها .. خصرها .. ساقها .. وشفتاها مكتنزتان كأنهما تعيشان فى قبلة مستمرة .. وعيناها شرقيتان تظللهما رموش طويلة كأنها تحاول أن تشد بهما الرجل الذى تختاره .. وشعرها أسود ضائع فى الظلام كأنه حزمة من الهمسات .. وهى تعلم أنها جميلة هذا النوع من الجمال .. وهى ذكية .. إنها تؤمن بنفسها كامرأة ذكية ولم يخنها ذكاؤها إلا مرة واحدة عندما تزوجت زكى .. كانت أيامها لا تزال فى الخامسة عشرة من عمرها .. وأحبته .. ربما أحبت فيه استسلامة لها .. شاب طويل وسيم هادىء يكبرها بخمسة أعوام ويستسلم لكل هزة رمش من عينيها .. لم تقدر أيامها أن الرجل المستسلم هو رجل ضعيف .. الرجل القوى هو الذى يشترى المرأة أو يغتصبها وليس الرجل الذى يستسلم .. خانها ذكاؤها أيامها وتزوجته رغم أنه لم يكن فيه إلا الوسامة وهذا الاستسلام .. لم يكن غنيا ولا هى أيضا كانت من عائلة غنية .. لا يهم .

إن اليهود يضربون السوق بالعصا السحرية فتنفجر ينابيع الثروة من تحت أقدامهم كما ضرب موسى البحر بعصاه فانشق طريقا سهلا ممهدا تحت أقدام اليهود .. ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أن زكى لا يملك عصا يضرب بها السوق .. إنه ليس مستسلما لها وحدها إنه مستسلم للدنيا كلها وما تعطيه الدنيا يكفيه .. إنه مكتف بالمرتب الذى يأخذه من وظيفته كمراجع حسابات .. وكانت تلح عليه أن يسعى إلى أكثر .. أن يجازف .. أن يدخل السوق من طريق آخر .. ولكن لا أمل .. إنه سعيد هكذا .. وابنه وابنته يأكلان ويشربان ولا ينقصهما

شىء .. إن كل طموحه كيهودى انحصر فى أنه حصل عليها هى وتزوجها.. ولكن طموحها هى يهودى أصيل لا يمكن أن يكتفى بالحب ولا يمكن أن يشبع بليال فى أحضان حبيبها الذى تزوجته .. إنها تريد أكثر .. تريد الحياة بأوسع جنباتها .. تريد أن تعيش هى وولداها كما تعيش عائلة شكوريل وقطاوى ومزراحى .. هذه العائلات اليهودية التى تتفطرس حتى على اليهود أنفسهم الذين يعيشون فى المستوى الأقل ..

ولم يكن يخطر على بالها أبدا أنها ستكون يوما مسلمة وتعلن اسلامها حتى تصل إلى هذه الحياة التى تريدها .. كانت كل الحياة كما تحس بها هى حياة اليهود .. وكل أمل يتحرك فى خلجاتها هو أمل يهودى .. تعيش كما يعيش اليهود وتسعى كما يسعى اليهود وتصل إلى ما يصل إليه اليهود .. وكانت عقدتها دائما أن تصل إلى الطبقة الراقية الغنية اليهودية.. ورغم ذلك فلم تكن يهودية متدينة .. لم تكن تواظب على التردد على معبد الاشكنازى القريب من بيتهم فى حى الظاهر ولا على المعبد الآخر القريب من حى العباسية .. ولم تكن أساسا مقتنعة بضرورة الصلاة رغم أن أختها ليزا كانت متطرفة فى تدينها وتصلى صلاة الصباح وصلاة الظهر وتصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع لأنهما اليومان اللذان تتلى فيهما التوراة داخل الكنيس .. ماذا أخذت ليزا من صلاتها .. إنها ليست طبيعية .. إنها مريضة .. تكاد تكون مجنونة .. بل إن لوسى سرقت مرة شال الصلاة الذى كان أبوها يعتز به ويطرزه ببعض الخيوط الذهبية .. الشال يلتف

به اليهود ساعة الصلاة وقد يربطه بعضهم على صدره طول يومه تبركا .. سرقته وأضافته إلى قميص كانت تحيكه لنفسها.. ويا داهية دقى .. كاد أبوها يقتلها .. ولكنها بقيت مقتنعة بأن هذا الشال الحريرى المذهب أصلح لقميصها منه للصلاة .

وأكثر من ذلك .. كانت لوسى تكره يوم السبت .. حرام أن يفرض على اليهود العذاب كل يوم سبت .. إنه اليوم الذى استراح فيه الله فقد خلق الدنيا فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع وكان يوم السبت .. وما دام الله لم يعمل يوم السبت فقد حرم على اليهود العمل فى هذا اليوم .. حرمت على اليهود أى حركة .. حتى أن يمد يده ليوقد النور أو يطبخ أو يكتب أو يمد يده فى جيبه ويلتقط قرشا يشترى به شيئا ..

وإذا اضطر للسفر أو المشى فى هذا اليوم .. فمحرم عليه أن يمشى أكثر من نصف ميل .. إن بن جوريون نفسه قال يوما «إن يوم السبت هو يوم تعاسة الأطفال» لماذا تستسلم لتعاسة يوم السبت .. لماذا لا تجادل الله حتى يعفيها من هذه التعاسة .. وهى تذكر عندما احتاج جيرانهم فى الشقة المقابلة إلى اضاءة النور يوم السبت فخرج ابنهم ديان ونادى أحد أصدقائه المسلمين ليضىء النور لهم ثم أمر البواب أن يعطيه قرشا أجرا له لأنه مد يده إلى زرار النور واضاءه .. وأصبح الأطفال المسلمون فى الحى يتندرون ضاحكين بيوم السبت ويمرون على بيوت اليهود وهم يعرضون خدماتهم .. إضاءة النور .. إشعال وابور الطهو .. غسل طبق .. وهم يضحكون .. وقد

ثارت لوسى يوما ومدت يدها فى يوم من أيام السبت وأضاءة كل أنوار البيت وهى تصيح .. اعطونى أنا أجرى بدلا من أن تعطوه للمسلمين ..

كانت لوسى تتمرد حتى على تقاليد الطعام المفروضة على اليهود .. إن اليهودى لا يأكل إلا لحم الحيوانات ذات الأربع بشرط أن يكون لها ظلف مشقوق وليس لها أسنان، والطيور الأليفة بشرط ألا يكون لها منقار .. ممنوع على اليهودى أن يأكل لحم الخنزير لأن له أسنانا وممنوع عليه أن يأكل لحم الأرنب لأنه حيوان له أظافر .. ورغم ذلك كانت لوسى تأكل لحم الخنزير عندما يقدم لها فى أى مناسبة وأكلت لحم الأرنب عندما دعتها صديقتها سعدية إلى وليمة ملوخية بالأرانب .. لماذا تتقيد بهذه التفاصيل .. وأكثر من ذلك أنها لا تطيق «الكوشير» طعام الأعياد اليهودية .. خبز بلا خميرة .. إن من يأكل خبزا مخمورا فى العيد فكأنه فصل نفسه عن يهوديته .. وكنت تضطر أن تستسلم لخبز الكوشير .. ولكنها لم تكن تستطيع أن تستسلم لكل التقاليد .. إنهم فى عيد الفصح وهو عيد عبور اليهود من مصر إلى سيناء يذبحون شاة أو جديا ويأكلون خبز الكوشير وقطعة من العظم المشوى أو أى طعام مكروه يذكرهم بما كان يعانيه اليهود أيام العبور من قسوة الحرمان والجوع ثم يجلس الأب يحكى قصة الخروج من مصر وينتهى بدعاء «نلتقى العام القادم فى أورشليم» .. وفى أيام التكفير العشرة التى تنتهى بعيد يوم الغفران يمتنعون لمدة خمس وعشرين ساعة عن لبس الأحذية تذكرة لمسيرة اليهود

الحفلة ..و..و.. إنها أكثر من عشرة أعياد خلال العام .. ولوسى لا تستطيع أن تستسلم لكل هذه التقاليد المتطرفة .. لا يمكن أن يكون الرب هو الذى أمر بكل هذه التفاهات التى هى أقرب إلى وسائل التعذيب ..

ورغم تمرد لوسى على التقاليد الدينية فقد كانت يهودية .. كلها يهودية .. وهى تعيش وكأن الدنيا كلها يهود .. والمجتمع الذى تحس به هو مجتمع اليهود .. الأغنياء والفقراء يهود .

وقد كان المجتمع اليهودى فى مصر أيامها هو أقوى المجتمعات .. كل مراكز الثروة داخل هذا المجتمع .. وكانوا كل شىء .. كان فى مصر ٢٦ معبدا أو كنيس يهود .. وكانت تصدر أكثر من عشر صحف خاصة بالمجتمع اليهودى .. صحف صريحة بينها صحيفة «الرسول الصهيونى» .. وأكثر من جمعية لجمع التبرعات تبدو وكأنها جمعيات خيرية كجمعية «نقطة اللبن» وكل ما تجمعه فى خدمة الحركة الصهيونية .. وكان مندوبو هذه الجمعيات يصلون إلى لوسى فتصرخ فى وجوههم .. لماذا تأخذون من الفقراء .. لماذا لا تذهبون إلى بيت مزراحى أو بيت عاداه أو بيت منشه . بيوت أصحاب الملايين .. اذهبوا عنى وعودوا عندما تجدون فى هذا البيت ملايين كملايين موصيرى ..

وقررت لوسى أن تعمل لتغطى عجز زوجها .. وذهبت وقدمت نفسها إلى «ستافرو» وكان أرقى محل حلاقة فى القاهرة .. حلاق الباشاوات والأمراء .. قدمت نفسها كعاملة مانيكير تقلم أظافر الرجال .. ووافق ستافرو فورا لا لأنه واثق

بمواهبها فى تقليم الأظافر ولكن لأنها لها هذا النوع من الجمال.. الجمال المثير الذى تغلب فيه الإثارة على الجمال .. وهى نفسها كانت قد قدمت نفسها لا لأنها تقلم الأظافر ولكن لأنها قد تستطيع أن تخرج بشىء من أصحاب هذه الأظافر .. إن الأظافر هى مجرد علاقات اجتماعية . ومن يدرى ..

ومنذ أول يد امتدت إليها لتقليم أظافرها ولوسى واثقة من نفسها .. واثقة من هذا الجمال المثير .. أن أصابع الرجال تتحرك بين يديها فى لمسات ناعمة مستعطفة كأنها تتوسل إليها .. وابتسامة واسعة تواجهها دائما كأنها دعوات ملحة .. والرجال لا يكفون عن التحدث إليها والأحاديث تنبض بالغزل تصحبه عروض مغرية .. لا أحد يريد أن يسحب أصابعه من يديها .. كلهم يحاولون أن يبقوا معها طويلا .. وهى تفرض ارادتها .. هناك من يستحق أن تبقى أصابعه بين يديها ساعة .. وهناك من لا يبقى على أصابعه أكثر من خمس دقائق .. كل حسب تقديرها لقيمته الاجتماعية .. وقيمة عروضه وقيمة البقشيش .. إن مختار باشا صقر دفع لها بقشيشا خمسة جنيهات رغم أن أجر تقليم أظافره كان خمسين قرشا .. ومحسن بك على تعود كلما جاء ليقلم أظافره أن يحمل معه وردة حمراء ويتركها لها بجانب البقشيش .

واشتهرت لوسى .. أصبحت نجمة محل ستافرو .. واشتهرت بأنها امرأة صعبة .. أنها جميلة ومثيرة ولبقة وخفيفة الدم ولكنها صعبة .. أنها لا تعطى نفسها بسهولة .. لا أحد يستطيع أن يثبت أنه نالها .. وهى فعلا كانت قد قررت

أن تجعل من نفسها امرأة صعبة .. أنها تسأل نفسها دائما ماذا تريد من هذا الرجل وماذا يستطيع أن يقدم لها هذا الرجل .. فإذا وجدت أنها تريد ما تستطيع أن تقدمه بدأت تفكر فيما يعطيه .. ابتسامة أم قبلة أم أكثر .

ولم يكن البقشيش يكفى لأن يصل به أى رجل إلى لوسى مهما ارتفعت قيمته .. البقشيش هو مجرد بقشيش لا تدخله لوسى حسابها إذا أراد الرجل منها أكثر من تقليم أظافره .. حتى مجرد أن تخرج مع رجل فى دعوة بريئة لتناول الشاى أو العشاء كانت لوسى تحسب حسابها بالأرقام .. إنها لا تقبل أن تخرج مع رجل لمشاهدة فيلم سينمائى مثلا أو لتناول الشاى فى حديقة الحيوانات أو حديقة الأسماك أو تناول العشاء فى محل عادى .. هذا ما تفعله البنات أو النساء العبيطات .. أما لوسى .. لا .. أنها لا تقبل أن تظهر مع رجل إلا فى مجتمع يعطيها شيئا .. يرفع من قيمتها .. كان يدعوها إلى العشاء فى نادى السيارات أو فى نادى محمد على حتى ترتفع إلى مستوى نساء عائلات قطاوى وباروخ وعاداه وشيكوريل وباقى نساء المجتمع اليهودى الراقى .. وقد كان يتردد عليها ضمن زبائنها رجل من هذا المجتمع اليهودى .. ولكنهم كانوا يجلسون أمامها متعالين .. إنها ليست فى مستواهم .. إنها مجرد عاملة مانيكير .. حتى من كان يحاول منهم أن يصل إليها .. إلى جسدها .. كان يحادثها كأنها خادمة فى قصره يعرض عليها أن تتسلل من المطبخ بعد أن تنام سيدة القصر وتأتى إليه فى فراشه .. إن النزعة الطبقية والغرور الطبقى

داخل المجتمع اليهودى أبشع منه داخل أى مجتمع آخر فى مصر .. ولم تكن لوسى تحس بقيمتها وشخصيتها كاملة كامرأة جميلة مثيرة إلا بين زبائنها وأصدقائها المسلمين.. المسلمين أكثر من المسيحيين .. وقد عرض عليها مدحت بك ابن على باشا المليجى أن تصحبه إلى العشاء فى نادى السيارات .. وقبلت .. إنها تستطيع هناك أن تضع رأسها بجانب رأس أرقى وأغنى امرأة يهودية .. والملك فاروق يقضى لياليه هناك .. ومن يدرى .. قد تشد عينيه إليها .. وبلا الملك فاروق .. إن كل ملايين مصر هناك .. ومدحت شاب وسيم .. ابن باشا .. ولا شك أنه سيشرفها بصحبته وسيقدمها إلى أرقى الشخصيات وإن كان من المعروف عنه أنه سكير وله فى كل ليلة قصة مخمور .. لا يهم .. لا يهم ..

وفى يومين أخذت من مدخراتها التى جمعتها منذ اشتغلت عند ستافرو وصنعت لنفسها ثوبا رائعا .. إن ذوقها رائع فى اختيار الثياب حتى أنها فكرت أن تعمل كحائكة ثياب قبل أن تقرر أن تقلم أظافر الرجال .. ربما لأن تقليم الأظافر يفتح أمامها مجتمعا أوسع من أن تكون حائكة ملابس نساء .. واشترت كل شىء جديد .. الحذاء .. والجورب حتى ملابسها الداخلية رغم أنها كانت واثقة أنها لن تكون فى حاجة إلى عرضها أو خلعها أمام أحد حتى ولا أمام مدحت .. ولكنها فقط أرادت أن ترفع من روحها المعنوية أنها تغزو المجتمع الراقى فيجب أن تتسلح بكل ما هو راق .. واحتارت فى المجوهرات التى تتزين بها .. أنها لا تملك شيئا ثمينا .. لا «باندنتيف» ولا

«سوليتير» ولا شيئا يمكن أن يتساوى أو يتقارب مع المجوهرات التى تتزين بها نساء نادى السيارت .. وفكرت أن تستأجر «بروش» كدبوس ماس غالى تعلقه على صدرها .. تستأجره من الجواهرجى .. أحمد نجيب .. إن أحمد نجيب زبون عندها وتستطيع أن تقنعه ويمكن أن يثق فيها .. ثم فكرت أن تقترض الخاتم السوليتير الذى تملكه صديقتها دانيل والذى تركه لها صديقها الضابط الانجليزى قبل أن يقتل فى الحرب ..

ولكنها عدلت عن كل ذلك وقررت أن تدخل نادى السيارات بلا مجوهراتها .. ولا حتى الحلق الذى تحتفظ به أمها والذى تتدلى منه حبات لؤلؤ يابانى مصنوع .. يكفى جمالها المثير .. إن مارلين ديتريش كانت تكره الحلى والمجوهرات وترفض أن تتزين بها حتى لا يشغل عيون الناس عن جمالها شىء .. إنها أيضا جميلة كمارلين مونرو .. ليست فى حاجة لأن تلفت إليها الأنظار بخاتم سوليتير أو بروش أو باندنتيف .. ويكفى جمالها.. شفتاها .. عيناها .. نهداها .. خصرها .. هذه هى جواهرها ..

ووقفت معجبة بنفسها أمام المرآة .. ولم تكن فى حاجة لأن تستأذن زوجها زكى .. إنها منذ بدأت تعمل خارج البيت وهى حرة .. ليس له الحق حتى أن يسألها .. وهو من طبيعته لا يسألها إلا فيما يخصه .. ما يخص البيت .. وقد أصبحت تساهم بما تكسبه فى كثير مما يخص البيت .. إنها تدفع ثمن حريتها .. وهى حرية تصل إلى أن مدحت جاء بسيارته ليأخذها من أمام البيت فى حى الظاهر ..

ودخلت نادى السيارات وهى تنفخ فى داخلها الثقة فى نفسها .. إنها لا تقل عن أى شخصية هنا .. ليس ذنبها إنها ليست ابنة ولا زوجة مليونير .. ولا باشا ولا بك .. ولاحظت

بعض همسات المتطلعين إليها وهى تدخل بجانب مدحت متجها بها ناحية البار .. إن من لا يعرفها يسأل عنها وهى تعرف الكثيرين .. ربما تعرفهم كلهم .. كثير منهم من زبائنها والباقى تسمع عنهم .. ووقفت بجانب حافة مائدة البار بجانب مدحت الذى بدأ يعب كأسه .. ولاحظت أن الرجال يتسللون إليها بعيونهم وكأن ليس من حقهم ولا من احترامهم لأنفسهم أن ينظروا إليها جهارا كما ينظرون إلى سيدات النادى .. ولاحظت وهى تدير عينيها أن سيدات العائلات اليهودية يتجاهلنها ومن تلتقى بعينيها تجدها تنظر إليها بتعال كأنها تريد أن تقول لها أنها تعرف أنها ليست سوى عاملة مانيكير .. وكل الرجال الذين تعرفهم والذين تصحبهم زوجاتهم سواء من المجتمع اليهودى أو المجتمع المسيحى أو المسلم يحيونها إذا مروا بها تحية رسمية باردة ليست كالتحية التى تعودتها منهم فى محل ستافرو .. بل حدث أن مر بها المليونير ايلى كوهين وزوجته وهما فى طريقهما إلى قاعة الطعام .. وهو رجل عجوز ربما جاوز السبعين .. وتحرك مدحت وقدمها إليه

- لوسى هل تعرفها ..

وقال العجوز وهو يلتقط يدها :

- لا .. أتمنى .. إنك جميلة ..

وفى نفس اللحظة أدارت زوجته ظهرها إليها وادعت أنها تحادث صديقه ولاحظت لوسى أن الزوجة تتعمد تجاهلها فظلت محتفظة فى يدها بيد الرجل العجوز وقالت وهى تبتسم له ابتسامة واسعة :

- الآن تعرفنى بالسيدة زوجتك ..

وشد الرجل العجوز يده من يدها بسرعة وقال وهو يبحث

بعينين هالعتين عن زوجته التي بدأت تبتعد عنه :

– يشرفني .. في مناسبة أخرى ..

وابتعد خلف زوجته ..

والتف حول مدحت ولوسي بعض الشباب العزاب والرجال الذين لا يصحبون زوجاتهم .. وبدأت كلمات الغزل تحيط لوسي . كلمات أجرأ وأصرح من الكلمات التي تسمعها منهم وهي تقلم أظافرهم في محل ستافرو .. بل إن عامل البار بدأ هو الآخر يسرق لنفسه بعض الكلمات ويسألها عن رقم التليفون .. ومدحت بدأت الخمر تلعب به وبدأ يتجرأ عليها يتحسس كتفها وخصرها ثم يثير خناقات وشتائم مع من حوله .. وهي تحس أنها هنا تفقد كل شيء .. تخسر هذه اللعبة.. إنها على الأقل تفقد سمعتها كفتاة صعبة .. لا أحد يعاملها هنا على أنها امرأة صعبة .. لا شيء يعتبر صعبا في نادي السيارات .. ولا أحد ..

وبلباقة بدأت تنسحب وصاح بها مدحت :

– إلى أين ؟

قالت له وهي تضحك ضحكة كبيرة :

– سأطمئن على جمالي في المرآة .. أخشى أن تكون قد أكلت مني قطعة ..

وضحك مدحت ضحكة مخمورة وتركها تذهب وهو معتقد أنها تذهب إلى الحمام ..

وجرت تنزل السلم .. وتماسكت وهي تصل إلى الباب الخارجي المطل على شارع قصر النيل .. ووقفت في أرستقراطية تأمر الحارس أن يدعو لها سيارة تاكسي ..

وأعطته بقشيشا كبيرا .. إنها لا تريد أن تحس أنها تعطي أقل مما يعطي أعضاء نادي السيارات .. وركبت التاكسي إلى حي الظاهر .. إلى بيتها ..

ومن يومها قررت لوسي أنها لن تصل إلى ما تريد عن طريق الخروج إلى هذه المجتمعات التي عاشت تحلم بها .. مجتمعات الطبقة الراقية اليهودية .. لن تصل إلى ما تريد إلا من خلال نفسها .. من خلال حياتها الخاصة .. ومن خلال شخصيتها كامرأة صعبة .. والمرأة لا يمكن أن تكون صعبة إلا إذا كانت امرأة ذكية .. تأخذ أضعاف ما تعطي .. وهي تعلم أن كل ما تعطيه هو انعكاس جمالها وأنوثتها في كلمة .. في ابتسامة .. في لمسة .. فيما هو أكثر .. والكلمة لها ثمن .. والابتسامة لها ثمن أكبر . واللمسة ثمنها أكبر وأكبر . والثمن ليس هو البقشيش .. الثمن قد يكون هدية وقد يكون خدمة من الخدمات التي تحتاج إليها . ولم تضطر أن تعطي أكثر إلا لعبد الرحمن بك المدبولي ..

كان عبد الرحمن بك من زبائنها في محل ستافرو .. يقلم أظافره رغم أنها أظافر عريضة خشنة لا تجدي فيها أي تقليم.. ولكنه كان يقلمها لأن هذه هي مظاهر الطبقة الراقية .. وهو من الطبقة الراقية الفلاحي يملك أراضي وعمارات وعضو في حزب الأحرار الدستوريين وعضو في مجلس النواب .. وقد عرفت كل شيء عنه من خلال حديثه معها .. إنه لا يكف عن الكلام ويده بين يديها تلعب بأظافره العريضة الخشنة .. وينتهي دائما قائلا :

– متى يا لوسى كل ماتريدين وأكثر .. لك أن تأمرى ..

وتضحك له ضحكة كبيرة قاتلة وهى تمد يدها إلى البقشيش السخى :

– الصبر يا عبد الرحمن بك ..

إلى أن بدأ يحدثها عن عماراته فى جاردن سيتى .. لقد كان يؤجر احدى شققها لموظف فى السفارة البريطانية وقد تركها وسافر وهو يبحث لها عن مستأجر .. وقالت وهى تجس كأنها تلقى نكتة

– آخذها أنا ..

وبعد أن قالت الكلمة أحست كأن النار تشتعل فى عقلها . كل ذكائها يغلى .. لماذا تعتبرها نكتة .. لماذا لا تقيم فعلا فى شقة فى جاردن سيتى .. وكان أيامها حى أولاد الذوات .. قمة أولاد الذوات .. إن هذا الجحش الذى يملك العمارة من السهل أن تعطيه ثمن الشقة ..

وقال عبد الرحمن بك :

– ثمنها غالى يا لوسى ..

وقالت مبتسمة فى دلال :

– هل هناك ما يغلو على عبد الرحمن بك ..

ونظر إليها فى حيرة ثم قال كأنه يحادث نفسه :

– أربعون جنيها فى الشهر .. وكل سكانها من السلك السياسى .

وقالت وابتسامتها تقفز فوق وجهها :

– أربعون جنيها .. حرام .. إنك تدفع لى أكثر كل شهر لمجرد تقليم أظافرك ..

ثم قالت ضاحكة كأنها تلقى نكتة :

– سأدفع خمسين ..

ولم يرد عبد الرحمن بك .. ابتسم ابتسامة عبيطة .. ثم قام بعد أن دفع البقشيش دون أن يقول لها كعادته .. متى يا لوسى ..

ولم تيأس لوسى .. ذهبت فى نفس اليوم إلى عمارة جاردن سيتى .. عمارة فخمة مطلة على النيل وطافت حولها .. ثم صعدت مع البواب بحجة تأجير الشقة الخالية .. خمس غرف وصالة .. وشرفة واسعة تطل على النيل وكأنها عوامة .. رائع.. وابتسمت لوسى كأنها تؤكد ثقتها بنفسها .. أنها تستطيع أن تعيش فى هذه الجنة مؤكد أنها تستطيع ..

ولم تحاول الاتصال بعبد الرحمن بك .. تركته إلى أن عاد بعد أسبوع كامل ليقلم أظافره .. وكالعادة بدأ يثرثر لم يأت على ذكر العمارة ولا الشقة الخالية .. ولكنه قبل أن ينصرف عاد يردد وعيناه تلتهمان وجهها من فوق ابتسامة جائعة يكاد لعابه يسيل منها :

– متى يا لوسى ..

وقالت وهى تبتسم وعيناها مستسلمتان لعينيه حتى يلتهمهما :

– هل شغلت الشقة الخالية فى عمارة جاردن سيتى ؟

واتسعت عيناه كأنه فوجىء بالسؤال فى دهشة :

– لا ..

قالت من خلال ابتسامتها فى حياء مفتعل :

– نلتقى هناك ..

قال والدهشة تشتد به :

– لماذا هذه الشقة .. إننا نستطيع أن نلتقى فى شقة أحد أصدقائى .. إنه صديق كتوم ..

قالت فى صوت خفيض وهى تخفى عينيها عنه كأنها عروس خجلة أمام عريسها :

– يا عبد الرحمن بك .. إنى لو ذهبت معك فستكون أول رجل فى حياتى أذهب معه .. ولا أريد أن أذهب معك إلى شقة تعودت أن تأخذ إليها غيرى من النساء .. ومن يدرى أى صنف من النساء ..

واتسعت ابتسامة عبد الرحمن .. ابتسامة عبيطة جائعة كأنه فلاح يرى القاهرة لأول مرة ..

وقال وهو يلعق لعابه بلسانه ..

– إذن متى ..

قالت وكأنها لا تفهم :

– متى ماذا ؟

قال فى لهفة :

– متى نلتقى فى شقة جاردن سيتى ..

قالت من خلال ابتسامتها الخجول :

– بعد أن نوقع العقد ..

وقال وكأنه ضرب على رأسه :

– عقد ماذا ؟

وقالت وهى تضحك ضحكة خافتة :

– ليس عقد زواج طبعا .. ولكنى أقصد عقد إيجار الشقة .. افهمنى يا عبد الرحمن .. إنى زوجة وقد تعودت ألا أكون لرجل

إلا فى بيتى .. ولا أستطيع أن أكون لك إلا وأنا أحس أنى فى بيتى .. أحس كأننا تزوجنا حتى ولو لم نتزوج .. إنها حالة نفسية ..

وأخذ عبد الرحمن ينظر إليها فى بله وكأنه لا يفهم شيئا ثم قال كأنه يتباهى بنباهته :

– وأنا لا أساوى شيئا بغير الشقة ..

وتظاهرت لوسى بالغضب وقالت :

– إنى لست فى حاجة إلى الشقة .. وشقتك أستطيع أن أؤجرها منك وأدفع الايجار كاملا أو أؤجر أى شقة أخرى فى جاردن سيتى ..

وقال عبد الرحمن ضاحكا ضحكته الفلاحى وهو يهم بالانصراف :

– اتفقنا ..

وقالت فى جزع :

– اتفقنا على ماذا ؟

وقال عبد الرحمن وهو ينصرف ضاحكا :

– اتفقنا على أن نلتقى بعد اعداد العقد ..

وخرج ولوسى تنظر وراءه فى حيرة .. هل نجحت خطتها.. لا تدرى .. هل يريدها إلى حد أن يتنازل لها عن شقة فى عمارته .. ربما كان كل ما يحرص عليه هو ألا يقال عنه أنه يسمح للمانيكيريست اليهودية المعروفة بأن تقيم فى عمارته .. وهو فلاح ونائب وعضو فى الحزب ويهمه ما يقال عنه .. فهل يريدها إلى حد أن يضحى بسمعته .. لا تدرى ..

ولم يمر أكثر من يومين بعدهما اتصل بها بالتليفون .. إنه

يريد أن يلقاها فى شقة جاردن سيتى لتوقيع العقد ..

وذهبت

وكان واقفا وسط الشقة التى لم تفرش بعد .. وفتح ذراعيه ليأخذها بين ذراعيه وهى تدخل إليه .. وابتعدت ضاحكة وهى تقول

– لم تعد شقتى بعد

واخرج من جيبه عقد ايجار .. وقرأته بسرعة .. وقالت ضاحكة

– لقد رفعت الايجار .. خمسون جنيها لا أربعين .

وقال وهو يلتصق بها :

– إنها دائما خمسون .. وتعودت أن أفرض على المستأجر ستة أشهر مقدما .. لقد اعتبرت إنك دفعت الشهور الستة .. إنها شقتنا نحن الاثنين .

وتركت له شفتيها ينقض عليهما بشفتيه ثم جذبت نفسها منه وهى تزفر ما التقطته من انفاسه .. كأنها عامل يستريح من دخان الآلة . ونظرت إليه مبتسمة .. إنها لم توقع العقد بعد .. واخرج قلمه ووقعت العقد وطوت نسخة العقد فى حرص ووضعتها فى حقيبتها .. وعادت إليه بشفتيها وتركته ينفث بينهما كل طين الحقل .. ثم حاول أن يرقدها على الارض العارية .. وقاومت وابتعدت عنه وهى تقول فى ضحكة خجلة :

– لقد اتفقنا على أن نكون كزوجين ولا يمكن أن تقبل العروس أن تتم دخلتها على الارض . ليس قبل أن يكون لنا فراش ..

وقال فى ذهول :

هل يجب أن نشترى السرير مقدما ..

وقالت ضاحكة :

[illegible]ـه جهاز العروس .. ولا يمكن أن ينام عبد الرحمن بك [illegible] ليست هذه قيمته ولا قيمتها .

[illegible] عبد الرحمن بك وأخذ ينظر إليها بعينين تنضحان الشك والاتهام ولكنها استطاعت أن تشغله بحديث طويل .

[illegible] تضحكه .. ثم نقلته إلى حالة الثرثرة التى تصيبه .. إلى أن تعبا من الوقوف فى الشقة العارية .. وخرجا وقد قرر عبد الرحمن أن يشترى حجرة نوم من عند محل بنتريمول..

وقالت كأنها تطمئنه :

– لن نكون فى حاجة إلى أكثر من حجرة نوم ..

وابتسم عبد الرحمن بك المدبولى مطمئنا فرحا بعروسه الجديدة .

ومرت وهى فى طريق عودتها إلى البيت بالمعبد اليهودى .. والتفتت إلى البناء تبتسم فى شماتة وكأنها تخرج لسانها للحاخام .. ويدها تتلمس عقد الشقة .. إن الله وهب اليهود عقولا تفكر وتكسب ولم يهبهم هذه الخزعبلات التى يفرضها عليهم الحاخامات .. لقد استطاعت أن تعقد صفقة رغم أنها لا تصلى ولا تطيق خبز الكوشير .. إن الله هو العقل ..

واختارت لوسى بنفسها غرفة النوم التى اشتراها عبدالرحمن بك .. واشترت معها مقعدين أوبيسون فقط .. لنستريح عليهما يا عبد الرحمن .

وكانت كأنها تقيم ليلة دخلة .. وفتحت له كؤوس الشمبانيا من أن يأخذها .. إنه مبهور بكل ذلك .. يحس كأنه انتقل إلى عالم الخواجات .

ومر أسبوع قبل أن يتصل بها ليلقاها اللقاء الثانى . إنها لا تستطيع .. وابنتها ياسمين مريضة .. لا تستطيع أن تتركها وحدها .. إنها اعتذرت حتى عن عدم الذهاب إلى عملها فى محل ستافرو .. ومر أسبوع ثان .. إنها لا تستطيع .. زوجها زكى دعا أمه وأخته وهما تحاسبانها حساب الشياطين .

ثم التقت به فى شقة جاردن سيتى فى الأسبوع الثالث .. وقد فوجيء عندما دخل بأن وجد قطعا أخرى من الاثاث .. وقالت له أنها قطع من اثاث بيتها جاءت بها لتملأ فراغ الشقة .. واعطته نفسها .. لم تعط له قدر ما أعطته يوم الدخلة ولكن الغريب أن عبد الرحمن بك نفسه لم يكن يريد أكثر .. إنه يتمتع اكثر بالثرثرة .. وهى تثير شهية لسانه للثرثرة ..

وعندما ذهب عبد الرحمن بك للقائها مرة ثالثة فوجيء بأن وجد العائلة كلها قد احتلت الشقة. وقالت له وهى تخفف دهشته .

– لقد وعدتنى أن يكون هذا بيتى .. كيف يكون بيتى وليس فيه أولادى ..

ولم تبد على عبد الرحمن السعادة ولكنه لم يعترض .. أو اعترض صامتا . تركها تقدمه لابنها ايزاك وابنتها ياسمين وهى تقول له هامسة :

– لقد قلت لهما إنك صديق عزيز وإنك ستأتى لزيارتنا لاقلم أظافرك ..

وسكت برهة .. واجلسته فى صالة الضيوف وجاءت بادوات المانيكير وأخذت تقلم له أظافره وابنتها وابنها من حولهما .. وفى دقائق استطاعت أن تشده إلى الثرثرة .. وحتى

تطمئنه اكثر أمرت ايزاك وياسمين بأن يخرجا إلى الطريق ثم اخذته إلى غرفة النوم ..

ولم يكن زوجها زكى فى البيت .. وهو لم يجادل طويلا عندما فاجأته زوجته لوسى بأنها استأجرت شقة فى جاردن سيتى . إنها تكسب كثيرا من عملها وتتعرف بكثير من الناس ولن يصعب عليها أن تجد مثل هذه الشقة .. إن تكاليف الحياة فى الشقة الجديدة زادت . ولكن لوسى أصبحت تستطيع أن تساهم بالكثير وهو ايضا بدأ يدفع أكثر فى مصاريف البيت .. ولكنه سعيد ..

وقد التقى زوجها زكى بعبد الرحمن بك فى احدى زياراته للبيت .. زبون يفضل أن يقلم أظافره فى البيت بدلا من أن يقلمها فى محل ستافرو .. وزيارات عبد الرحمن تتكرر .. وكانت دائما زيارات متباعدة لانشغاله وارتباطاته السياسية والعائلية .. أصبح يحب أن يجلس مع زكى ومع ايزاك وياسمين .. إنهم يفتحون نفسه أكثر إلى الثرثرة .. وامامه زجاجة الويسكي وأطباق طعام شهى تعدها له لوسى .. لم يعد الفراش هو ما يجذبه إلى البيت .. إنها الليالى الهادئة الحلوة المسلية التى يثرثر فيها .. أصبح صديقا للعائلة متباعد الزيارات ولم تعد لوسى تعطيه من جسدها .. هو نفسه لا يلح

وهو ليس نادما على شيء .. إن ما اخذته لوسى لا يساوى شيئا من ثروته وتباعد زياراته يحمى سمعته من كلام الناس ومن الاشاعات ..

ولوسى فخورة بنفسها ..

إنها وصلت إلى أرقى شقة فى أرقى عمارة من أرقى حى

يضم كل العائلات القمم اليهودية .. إنها اليوم تعيش ورأسها في مساواة رأس نساء عائلة قطاوى وكوربيل وشيكوريل وعاداه ومندلر ومنشة و..و.. وباقى عائلات المجتمع اليهودى المصرى الراقى .. ربما كانوا يتكلمون عنها ويرددون حكايات عن الطريق الذى وصلت به إلى جاردن سيتى .. إن الكلام لا يهم .. المهم هو مستوى الحياة التى تعيشها .. إنه نفس مستوى أغنياء اليهود حتى وهى لا تزال عاملة مانيكير فى محل ستافرو .. إنها لا تريد أن تترك عملها .. الفرص أمامها لا تزال كثيرة .. ومن يدرى ما يمكن أن تصل إليه .

كانت هذه هى حياة لوسيان هنيدى ..

قبل أن تلتقى بشوكت بك ذو الفقار..

وقبل أن يصبح اسمها .. زينب..

وكانت مصر أيامها تعيش فى عام ١٩٤٤ .

٢

كان شوكت بك ذو الفقار مجرد زبون داخل محل ستافرو الحلاق وهو لا يدرى أنه يخطو إلى حياة جديدة .. وقد تأخر طويلا إلى أن جلس أمام لوسى ومد يده إليها لتقلم أظافره .. .. كان مضى أكثر من عام منذ بدأت لوسى تعمل عند ستافرو دون أن ترى شوكت بك .. لم يكن من الزبائن الدائمين .. زبون طارىء .

والتقطت لوسى نظرته إليها وهو جالس أمامها .. إنها نظرة مهذبة تحمل خيطا من خيوط احتشام .. وعيناه مرتاحتان فوق وجهها دون أن يحملا أى دعوة .. وابتسامة خفيفة هادئة من شفتيه ليس فيها غزل ولا تحريض ولكنها تحمل إعجابا صامتا عفيفا .. ولا يتكلم .. لكنه كان يتنبه إلى أنه نسى عينيه فوق وجه لوسى فيشدهما ويفتح مجلة فرنسية يحملها معه واختفى بين صفحاتها برهة .. إنها مجلة متخصصة فى سباق الخيل .. ثم لا يلبث أن يعود وترك عينيه فوق وجه لوسى ..

ولوسى تراقبه فى أدب وتترك له ابتسامة دائمة فوق شفتيها وقد بدأ رأسها يشتعل بذكائها .. إن شوكت بك قد

يكون فرصة .. فرصة رائعة .. أنه من الطبقة العالية جدا .. بينه وبين العائلة المالكة نسب قديم .. وغناه يتعدى حدود الحساب .. لم يعد أحد يحسب كم فدانا من الأرض يملك ولا كم قصرا ولا كم ألفا من الجنيهات .. وهو فى العمر الذى يضعف الرجل دائما أمامها .. عمر الخمسين وما بعدها .. وأكثر من ذلك .. إنه يعجبها .. عمره يضفى عليه جمالا.. ملامحه رقيقة .. وقوامه متسق مرسوم كأنه لا يكف عن الرياضة .. ترى ماذا يلعب .. جولف .. تنس .. ولونه أبيض ليس فيه نصعة البياض .. ولكنه البياض التركى الممزوج بالسمار المصرى .. وعيناه العسليتان أجمل ما فيهما أنهما مهذبتان .. وشعره الأسود الأبيض فى لون الدخان .. ثم إنه شوكت بك ذو الفقار ..

وقررت أن تخرجه من صمته .. إلى الآن لم تكن قد سمعت صوته .. وقالت وهى تلقى بعينيها على المجلة التى يحملها

- هل تهتم بسباق الخيل .

واتسعت ابتسامته وقال وعيناه تلتصقان بها أكثر

- لا أهتم بالسباق .. ولكنى أهتم بالخيل .. إنى اقرأ نتائج السباق كأنى أتتبع درجة حرارة الخيل

وقالت وهى تضحك ضحكة ناعمة خافتة :

- إنى أخاف السباق .. ولذلك تعودت أن أنظر إلى الخيل من بعيد .. هل عندك خيول .

قال مبتسما وهو ينظر إلى بعيد كأنه يبحث فى خياله عن الخيول

- عندى .. لعلى ولدت ونشأت بين الخيول .. والخيول كالأطفال .. مدللة .. ممتعة .. لكنها تختلف عن أطفال البنى آدم .. فالطفل يكبر ويتطور إلى رجل عاقل ولكن الحصان كلما كبر اكتسب مزيدا من الطفولة .



وتحدثا دقيقتين عن الخيول وكانت قد انتهت من تقليم أظافره .. ورفع يده أمام عينيه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة وقال فى كلمات متكسرة كأنه خجل :

– اعتقد أن أصابعى ستتعود على يديك ..
قالت وهى تسدل جفنيها كأنها هى أيضا خجلة :
– إن يدى فى انتظار أصابعك دائما .
ومد يده فى جيبه وأخرج عشرة جنيهات ووضعها أمامها على المائدة الصغيرة .. عشرة جنيهات .. بقشيش كبير لم يتعوده غيره من الزبائن .. ولكنها بسرعة التقطت العشرة جنيهات وأعادتها إليه وهى تقول مبتسمة فى خفر
– أرجوك ..
وارتبك فى حيرة وقال :
– لماذا ..
وقالت من خلال ابتسامتها الخجولة :
– إلى أن تتعود أصابعك على يدى ..
قال فى حيرته :
– لكنى يجب أن أترك شيئا ..
قالت وهى تخفى عنه عينيها :
– إنها المرة الأولى التى نلتقى فيها .. لنتركها للمرة الثانية حتى أتأكد أنى استحقها .
وأعاد العشرة جنيهات إلى جيبه وقال وهو لا يزال حائرا :
– إننى متأكد أن هناك مرة ثانية ..
ونظر إليها كلها كأنه يحملها معه فى عينيه وابتعد وذكاؤها يجرى خلفه .. بكل ما وهب الله اليهود من ذكاء .. لقد قررت أن تعتذر عن قبول البقشيش حتى تقدم نفسها إليه فى شخصية أخرى غير التى ينتظرها .. إنها ليست مجرد عاملة

المانيكير التى تنبهر بالبقشيش رغم أنها كانت قد بهرت بالعشرة جنيهات .. وقد أحست كأنها تلعب لعبة حظ وتقامر وهى تستغنى عنها .. إنها تلقى عشرة جنيهات لتصطاد شوكت بك نفسه .
ويومها انتهت من عملها وذهبت إلى احدى المكتبات واشترت كتابا عن الخيول وتربية الخيول .. كأنها تتعطر بالعطر الذى يعجب رجلها .. ويعجب شوكت بك .
ومر يوم .. يومان .. ثلاثة .. وهى لا تفقد الأمل .. إنها دائما واثقة من نفسها .. وفى اليوم الرابع دق جرس التليفون فى محل ستافرو يطلب تحديد موعد مع لوسى لتقليم أظافر شوكت بك ذو الفقار .
وابتسمت لوسى غرورا بنفسها .. لم يمض ما يكفى لتحتاج أصابع شوكت إلى اعادة تقليمها .. ليست أصابعه التى تحتاج إليها
وجاء شوكت وقال فى ابتسامة مهذبة وهو يمد أصابعه إليها :
– يبدو أن أصابعى لم تعد ملكى فهى تبحث عنك منذ تركتك
وقالت وهى تلتقط ابتسامته بابتسامتها :
– ويدى فى انتظارها من يومها ..
وبدأت تحدثه عن الخيول وتردد أمامه كلمات مما قرأته فى الكتاب كأنها موديل تعرض ما تتجمل به أمام الزبون وانطلق شوكت لا يكف عن الحديث عن الخيول .. ثم قال فى تردد وكأنه يخشى أن ترفض :

– هل أستطيع أن أصحبك لأعرفك بأولادى ..

وقد فهمته ولكنها ادعت أنها لم تفهم وقالت فى دهشة :

– أولادك ..

ورد ضاحكا :

– أقصد خيولى ..

قالت فى فرح ضاحك :

– طول عمرى أتمنى أن أتعرف على أولاد فى جمال أولادك .

قال :

– إذن .. غدا ..

قالت وهى تنظر إليه كأنها تلومه :

– لا تنس أنى أعمل .

وقبل أن ينطلق عادت تقول ضاحكة :

– ولكن غدا لن أعمل .. من أجل الأولاد .. واتفقا على أن يرسل إليها سيارته لتحملها إليه .. إنها لا تتحرج الآن من أن يأخذوها من بيتها .. إنها لم تعد من سكان الحى الفقير .. حى الظاهر .. إنها من سكان جاردن سيتى ..

وانصرف شوكت دون أن يترك لها بقشيشا .. وفرحت لأنه لم يحاول أن يترك البقشيش .. وفرحت بذكائها .. لقد كسبته .

وحملتها السيارة إلى أرض تطل على ترعة المنصورية بجوار الأهرامات .. ودخلت بها بين أشجار المانجو والبرتقال والموز والعنب .. ولوسى تدير عينيها كأنها تحسب عدد

الأشجار وتقدر قيمة كل منها .. ثم وقفت بها السيارة أمام قصر ريفى صغير وسط حديقة من الزهور .. والورود .. وشوكت واقف فى استقبالها . وقال وهو يرفع يديها إلى شفتيه ويقبلهما :

– هل أتعبك المشوار ..

قالت وهى تضمه إلى ابتسامتها :

– أتعبنى جمال الأشجار عندك .. أحسست كأنى أريد أن أحتضن كل شجرة وأنام على جذعها ..

وقال ضاحكا وهو يرخى عينيه تهذبا وخجلا :

– اعتبرينى شجرة ..

قالت وهو يصطحبها إلى داخل القصر :

– أخاف أن تكون شجرة خطرة .. هناك أشجار تأكل الناس ..

وضحك دون أن يرد كأنه يهرب من مثل هذا الكلام ..

وجلسا يتناولان القهوة وهو يحدثها عن الخيول وعن الزرع وعن الأرض .. وهى تدير عينيها حولها بين جدران القصر .. وتنطلق الأحلام فى رأسها .. هل يمكن أن يكون لها مثل هذا القصر .. كيف يمكن أن يكون لها .. وقفزت ابتسامة ساخرة داخل خيالها كأنها تسخر من نفسها .. لا يمكن أن يكون هذا القصر لها إلا إذا تزوجته .. تزوجت القصر .

وقام بها شوكت بك وصحبها إلى اسطبلات الخيل .. ويقف أمام كل حصان ويروى لها تاريخه وقصته .. وهى تبدى اهتماما بكل حصان كأنها تذوب فيه وتربت عليه وتلتصق به

وتدلله وتلقى عشرات من الأسئلة التى يوحى إليها بها ما قرأته فى الكتاب الذى اشترته .. إن هذه الخيول أولاده ويجب أن تكسب حب أولاده حتى تكسب حبه .

وقدم لها فرسة صغيرة قائلا :

- هذه ضيفة جديدة .. لم اطلق عليها اسما بعد .. سمها أنت .

وقالت وهى تحتضن رأس الفرسة إلى صدرها :

- إنها جميلة .. منتهى الجمال .. سمها ياسمين .. إنه اسم ابنتى .. وستكون ابنتى ..

وقال وهو يضحك ضحكته الخجلة :

- ستكون ابنتها ..

وقرر أن يطلق على الفرسة اسم ياسمين .. ومضى وقت طويل وهما بين اسطبلات الخيل إلى أن عاد بها إلى القصر لتناول الغداء وهو لا يكف عن حديث الخيل .. ولكن بعد الغداء ..وهما جالسان فى استرخاء انتقل بحديثه إلى موضوع آخر .. أنه يحدثها عن نفسه .. وزوجته مريضة .. مريضة جدا.. لقد أصبح الموت رحمة لها .. وأولاده الأربعة لا أحد منهم بجانبه .. إنهم أولاد كبار كل منهم أصبحت له حياته الخاصة .. ثلاثة أولاد وبنت .. وهو يشعر بوحدة قاسية .. وحدة لا يشاركه فيها إلا مرض زوجته .

وقال وهو يميل إليها ويرخى عينيه أمام وجهها :

- إنى فى حاجة إليك ..

قالت كأنها ضعفت أمام خجلها :

إنى اعتز بأن نكون أصدقاء ..

ولم يعترض على كلمة «أصدقاء» كأنه لا يريد أكثر .. وقال:

متى سأراك ..

قالت مبتسمة :

كلما أردت ..

قال وهو يمسك بيدها :

غدا .. هنا ..

قالت مبهورة :

- لا .. لا يمكن .. لا تنس إنى أعمل عند ستافرو وقد تغيبت اليوم ولا أستطيع أن اتغيب أكثر .. لنتركها ليوم الأحد القادم

قال وهو يضغط على يديها أكثر :

لا أعتقد إنك فى حاجة إلى العمل .. اتركى ستافرو .. أريد أن أكون زبونك الوحيد .. يدك لا تضم إلا أصابعى ..

وقالت وهى تبتسم فى خفر :

إذا كنت زبونا فلن تكون أبدا الزبون الوحيد .. ولكن يمكن أن تكون الصديق الوحيد ..

قال وكأنه يتوسل :

الصديق يرجوك أن تتركى العمل عند ستافرو ..

وقالت مبتسمة فى حنان كأنها تشفق عليه من لهفته إليها :

- ليس الآن يا شوكت .. إنك فى حاجة لتعرفنى أكثر وأعرفك أكثر ..

وكانت المرأة الأولى تناديه بلا لقب .. شوكت ..

وزفر أنفاسه فى يأس وقام يصحبها إلى الخارج وقد اتفقا على لقاء يوم الأحد .. وتوقف بها قبل أن يصلا إلى الباب ووضع يده فى جيبه وأخرج علبة صغيرة فتحها عن قلادة ذهبية تضم فصا صغيرا من الماس ومد يده يعلقها حول عنقها وهو يقول مبتسما :

– هذه ليست بدلا عن البقشيش الذى رفضته .. أنها هدية لقائنا لأول مرة .. لقاء الاصدقاء ..

وابتسمت وقلبها يخفق بالفرحة وقالت فى خفر :

– لن أقول لك شكرا كما أقول للزبائن .. وسأحتفظ بها دائما حول عنقى لتربطنى بأجمل لقاء بين أصدقاء ..

ولم يركب معها السيارة .. تركها تعود وحدها كما جاءت وحدها .. ربما لا تريد أن يراه أحد معها فى الطريق .. مع لوسى عاملة المانيكير .. وابتسمت ساخرة وهى تقلب فى يديها القلادة الذهبية .. إنها واثقة من أنها ستصل إلى ما تريد .

وأخذت القلادة ومرت بها على محل الجواهرجى الذى تعرفه .. إن الفص الماسى قيراط ونصف .. وثمن القلادة لا يقل عن مائتى جنيه .. مبلغ كبير كما كانت قيمة الجنيه أيامها ..

وهنأت نفسها .. وعادت إلى البيت واحتضنت ابنتها ياسمين وهى تعيش كل أحلامها مع الفرسة ياسمين .

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون فى محل ستافرو .. إن عائلة شوكت بك ذو الفقار تريد لوسى لتذهب إلى القصر .. تقلم أظافر هناك .. وفكرت لوسى بسعة . إن شوكت يريدها ..

لا لن تذهب وطلبت من عامل التليفون أن يعتذر .. مدام لوسى مشغولة .. إن موعده يوم الأحد .. ولن تكون أبدا امرأة سهلة

وجاءتها السيارة يوم الأحد وأخذتها إليه فى أرض المنصورية .. وقالت تعتذر له عن عدم الاستجابة له عندما طلبها فى التليفون لتذهب إلى قصره :

– لا أريد أن أحس بك كعاملة مانيكير وأنت مجرد زبون .. أنا لا استقبل الزبائن إلا فى مكان العمل .. إذا أحسست بحاجتك إلى كزبون تستطيع أن تأتى إلى هناك .. أما إذا كنت صديقا فلنتعامل كأصدقاء .. واعتذر ..

وقضيا يوما حلوا لا يشبع فيه أحدهما من الآخر إلى أن حاول تقبيلها .. كانا فى الاسطبل بجانب الفرسة ياسمين .. ولوسى تدللها عندما أحاطها شوكت بذراعيه وضمها إليه ومال على شفتيها يهم بتقبيلهما .. فابتعدت لوسى عنه بسرعة ـ وهى تهمس :

– لا .. لا يمكن ..

وقال شوكت فى رجاء :

– إنها قبلة من أجل ابنتنا ياسمين ..

وقالت فى حزم :

– لا .. لا يا شوكت ..

ثم خرجت من الاسطبل عائدة إلى القصر وهو وراءها .. وقالت وهى تبدو غاضبة :

– هذا ما كنت أخشاه .. ولهذا قلت لك إننا فى حاجة لأن تعرفنى أكثر وأعرفك أكثر .

قال فى دهشة .

– ماذا كنت تخشين ..

قالت :

– كنت أخشى أن أكون لك مجرد عاملة مانيكير اعجبتك ..

قال فى دهشة :

– ولكنى كصديق من حقى أن اقبل صديقتى حتى لو لم تكن عاملة مانيكير ..

قالت وهى لا تزال تبدو غاضبة :

– إنى زوجة ..

قال وهو ينظر إليها فى حيرة :

– وماذا نفعل وأنت زوجة ؟

قالت :

– يكون مجرد أصدقاء .. وكان يمكن أن أطلب منك دعوة زوجى لولا أننى واثقة إنك لن تستريح إليه ولا هو ..

ونظر إليها طويلا وكأنه يرى فيها شخصية جديدة ثم قال :

– آسف .. ربما تسرعت فى إبداء عواطفى .. ولكن إذا كنت تخشين أن أحس بك كعاملة مانيكير فاتركى عملك وكونى مجرد صديقة حتى لو كنت متزوجة ..

والتفتت إليه مبتسمة وقالت :

– لك حق .. سأترك عملى وأكتفى بصداقتك .. صداقة بريئة ..

ثم اقتربت منه أكثر وقبلته قبله سريعة على خده وقالت ضاحكة

– هذه قبلة الصداقة حتى تتعود عليها ..

ولم يرد شوكت قبلتها وقال وهو يصحبها إلى السيارة :

– سأراك غدا .. لم يعد هناك ما يشغلك عنى .. وهزت رأسها موافقة ..

إنه لم يركب معها السيارة أيضا .

وأبلغت ستافرو باستقالتها وتخليها عن العمل . تفرغت لشوكت .. ولم يهتم زوجها زكى عندما عرف إنها تركت عملها عند ستافرو.. إنها حرة .. والسوق مفتوحة لأعمال كثيرة .. حتى لو عادت واكتفت بالبقاء فى البيت .. فلا يهمه .

ولكنها لم تبق فى البيت .. أنها فى كل يوم تخرج إلى شوكت ..

والحياة ، تتطوربهما .. أصبحت تشترك معه فى إدارة اسطبلات الخيل .. وأصبحت سيدة القصر الريفى وأخذت تنقل فى قطع الاثاث وتضيف إليها لمجرد أن تثبت أنها سيدة القصر.. استطاعت أن تكسب صداقة ناظر العزبة وكاتب الحسابات والخولى .. ودائما محتفظة بانبهار شوكت بها أنها تملأ يومه كله .. تستطيع أن تجد طوال اليوم ما يجعله يتكلم أو يعمل أو يضحك أو يناقش أو يتحرك .. وقد بدأ يركب معها السيارة فى ذهابها وعودتها إلى العزبة .. ولكنه لم يدعها بعد إلى الخروج معه . إلى سهرة فى نادى السيارات أو جلسة فى نادى الجزيرة .

وكان قد مضى شهر منذ تفرغت له وقال لها وهو يحتضنها بابتسامة :

– لقد تركت عملك من أجلى فاصبحت أنا المسئول عنك .. أرجؤك دعينى أتحمل المسئولية .. ومد يده إليها وهى تحمل مبلغا من المال .. أوراق كثيرة .. لعلها مائة جنيه .. مائتان .. ربما أكثر .. على الأقل مما كانت تكسبه وهى تعمل عند ستافرو .. وأدارت عنه وجهها كأنها غاضبة وقالت :

– إنك لن تحمل مسئوليتى كصاحب عمل .. أنا لا أعمل عندك .. اتفقنا على أننا أصدقاء .. والصداقة لا تفرض على الصديق أن يدفع مرتبا لصديقه .

وقال وكأنه فوجىء :

– هذا ليس مرتبا .. أنى أساهم معك فى مسئولية حياتنا .

وقالت وكأن غضبها يشتد :

– لا .. إن لكل منا حياته .

ثم قامت وخرجت إلى الشرفة فى خطوات عصبية .. وذكاؤها يشتعل فى رأسها .. إنها لن تقبل أبدا أن يدفع لها نقدا .. إن المرأة عندما تقبل أن تأخذ نقودا من الرجل فقد وضعت نفسها فى مكانة لا تتعداها .. تبقى دائما وكل قيمتها عند الرجل هى المبلغ الذى يدفعه لها .. وقد كانت تقول لابنتها منذ أيام .. إذا أردت أن تصلى بالرجل إلى الزواج فلا تعطيه جسدك . ولا تأخذى منه نقودا إلا بعد الزواج .. وهى قد لا تتزوج شوكت ولكنها قطعا تريد منه أكثر من أن يدفع إليها نقدا .

وخرج وراءها شوكت وقال بصوته المهذب وهو يقترب منها

– أنا آسف .. أن كل ما أحاوله هو أن أسعدك .. وأنا حائر كيف أسعدك ..

وتعلقت عيناها بعينيه وقالت فى صوت خفيض كأنها على وشك أن تبكى :

– وأنا حائرة أكثر منك .. لا أدرى كيف نسير بصداقتنا .

واقترب منها أكثر وتركته يضع كفيه على جانبى خصرها وعيناه تتسعان أكثر وهما تضمان وجهها كله وقال :

لنعترف يا لوسى .. إنها أكثر من صداقة ..

وقالت وهى تحنى رأسها تلامس به كتفه :

– إنى أعلم .. ولكن هذا ليس من حقنا .

قال وقد تركته يضمها إلى صدره :

إنه ليس حق .. إنه قدر ..

ثم تركته ينام بشفتيه فوق شفتيها فى قبلة طويلة .. وهى مستسلمة .. وهو لا ينتهى .. ثم رفع شفتيه عنها وهم أن يجذبها من يديها إلى الداخل .. فشدت يديها من يده فى عنف وهى تقول فى حدة :

– لا .. لا يمكن .. لن أكون من هذا النوع من النساء .

وجرت من الشرفة إلى الحديقة .

وجرى وراءها إلى أن سار بجانبها قائلا :

– لوسى .. صدقينى .. أنى أريدك وأنا أحترمك .. إن حبى لك ليس حبا لامرأة جميلة ولكنى أحب امرأة أصبحت مقتنعا

بها .. وصدقيني لقد أصبحت أفكر أن نتزوج عندما أستطيع .. ولكني الآن لا أستطيع .. أنت تعلمين أن زوجتي مريضة ومن الصعب أن أعلن زواجي وهي في هذه الحالة .. ولكنها مريضة جدا .. لن تبقى طويلا .

وأنا لا أتمنى موتها كي أتزوج غيرها ولكني أتمناه لترتاح .. حتى أولادها أصبحوا يدعون لها بالموت .. قدرى كل هذا .. وقدرى حرماني ووحدتي وما أعانيه .

وانبهرت لوسى وهي تسمع هذا الكلام .. إنه يعرض عليها الزواج ولو أنه عرض معلق بأمل بعيد .. وهي تتعمد أن ترسم بذكائها كل كلمة وكل خطوة تخطوها معه .. وهي تعلم أن شوكت مختلف عن رجال هذه الطبقة الغنية المنحلة .. إنه جاد ومتحفظ ومهذب ومحترم وهذا ما يدفعها إلى أن تحاول معه بأسلوب جديد .. إنه صنف آخر غير عبد الرحمن بك مدبولي الذي كانت تعرف ما يريد فأعطته بعد أن أخذت منه ما كانت تريد .. إن شوكت يثير فيها أحلاما واسعة منذ التقت به لأول مرة ولكنها لم تنتظر أن تصل بهذه السرعة إلى هذا الحلم الكبير .. حلم الزواج .. وقالت وهي تبتسم له كأنها تواسيه في مصيبته :

– سأكون معك دائما .. كل ما أطلبه منك أن تتركني أحس باحترامي لنفسي .. لا تتركني أضيع في الندم ..

قال وهو يتنهد كأنه يتحسر على نفسه :

– تقصدين أن ننتظر إلى أن نتزوج .. ولكن .. هل تستطيعين أنت الزواج ..

قالت وهي تنظر إلى بعيد :

لا أدرى ..

وتركها تعود إلى القاهرة ..

ومن يومها والحياة تتطور بهما أكثر .. لم تعد حياة صداقة ولكنها حياة حب .. وفتح لها الحب أبواب كل أسرار شوكت .. بدأت تعرف كل تفاصيل حياته .. وبدأت تعوده على أن يعتمد عليها في كل شيء ..

إنها مديرة أعمال وربة منزل وسكرتيرة وستكون زوجة ..

وكل يوم تذهب إليه وتتطلع في عينيه وكل ما في بالها أن تكتشف حال زوجته .. هل ماتت .. وقبل أن تخرج في الصباح تعودت أن تقرأ صفحة الوفيات لعلها ماتت في الليل .

ولكنها لا تموت ..

وكان قد مضى أكثر من أربعة أشهر منذ تصارحا بالحب .. ولم تكن تعطيه أبدا أكثر من القبلات .. ولكنها بدأت تخشى أن يتعود على قبلاتها حتى يملها .. بل إنها أصبحت تحس أن قبلاتها أصبحت تتعب طبيعة الرجل فيه . أصبح كل منهما يهرب من القبلات حتى لا تتعبه.. يجب أن تتقدم خطوة أخرى.

وكانا يتناولان الشاي داخل البيت عندما مالت على صدره تدعوه ليقبلها .. وطالت قبلته وهي مستسلمة أكثر مما تعودت الاستسلام .. وتضعف وتضعف .. حتى تركته يأخذها كلها لأول مرة ..

وانهارت بعدها تبكي ..

لا تتوقف عن البكاء ..

وهو يحاول أن يشرب دموعها بشفتيه .. ويقول وفرحة السعادة تلمع فى وجهه .. كأنه انتصر .. كأنه اقتحم الجنة .

– لوسى .. اطمئنى .. أنت لى وأنا لك .

وقالت من خلال دموعها :

– لقد أصبحت مجرد امرأة .. ضعفت .. لا أدرى كيف تنظر إلى الآن .. لا أدرى إذا كنت ستحترمنى كما عودتنى .. أنى لن أساوى لديك شيئا غير هذا بعد الآن ..

ثم قفزت واقفة واستطردت قائلة :

– شوكت .. اسمع .. عدنى أن تكون هذه آخر مرة .. لا تحاول معى .. ولا تضعفنى .. وإلا تركتك ..

وقام بجانبها وقال وهو يحتضنها والسعادة لا تزال تلمع فوق وجهه :

– سنتزوج يا لوسى .. لن ننتظر شيئا .. لنبدأ فى استكمال كل شىء .. لو استطعنا أن نتزوج غدا فسنتزوج .

والقت رأسها تقبل عنقه بشفتيها وهى تبكى .. لم يكن الآن بكاء مفتعلا ..

كان بكاء الفرحة ..



ولم يكن الأمر سهلا ..

إنها يجب أولا أن تحصل على الطلاق من زوجها زكى .. لا تعتقد أن زكى سيثير متاعب كثيرة وهى دائما قادرة عليه .. ولكن ..

لماذا لا تعلن إسلامها وتصبح مسلمة .. لا لأن مجرد إسلامها يعتبر طلاقا من زوجها . ولكنها فى حاجة إلى

الإسلام ليتم ارتباطها كاملا بشوكت بعد أن تتزوجه .. على الأقل لتضمن حقها فى ارثه فقد عرفت أن الارث لا ينتقل من مسلم إلى يهودى ولا حتى مسيحى ..

وعندما قالت لشوكت أنها تفكر فى إعلان إسلامها قال فى دهشة :

– لماذا .. إننا نستطيع أن نتزوج دون أن تغيرى دينك .. أنها أنانية الإسلام .. البنت المسلمة لا تستطيع أن تتزوج غير المسلم ولكن الرجل المسلم يستطيع أن يتزوج من كل الاديان ..

قالت فى دلال :

– إنى أحب كل شىء فيك حتى إسلامك واريد أن أكون معك فى كل شىء حتى فى دينك ..

وفرح شوكت .. على الأقل سيضمن مكانا فى الجنة بعد أن يكتسب للإسلام مؤمنا جديدا .. ولكن .

ماذا تفعل بابنها ايزاك وابنتها ياسمين ..

هل تعلن إسلامهما أيضا ..

أم تتركهما لابيهما ..

لا .. لا يمكن .. إنها لا تستطيع أن تتركهما أبدا .. ولكن هل يستطيعان أن يعيشا معها كيهوديين وامهما مسلمة .. ثم ما ذنبهما لتنقلهما إلى دين لا يؤمنان به ولا يريدانه لمجرد أنه دين رجل ستتزوجه .

وكانت فى بيتها وذكاؤها المشتعل يكاد يحرق رأسها دون أن يصل بها إلى قرار .. ولا أحد فى البيت يعرف ما تنويه ولا ما تفكر فيه .. لا زوجها .. ولا ابنها ولا ابنتها .. ولا اختها

ليزا التى كانت تقيم فى ضيافتها .

ودق جرس البـاب .. إنه مندوب جـمـعـيـة « نقطة اللبن » الخيـرية التى ترسل مـا تجمعـه من يهود مـصر إلى الوكـالة الإسرائيلية فى فلسطين ..

وصاحت لوسى فى وجه مندوب الجمعية :

– ابعدوا عنا كفاكم مـا أخذتموه دون أن ندرى ماذا تفعلون بأموالنا .

وجرت أختها ليزا إلى المندوب وهى تبتسم معتذرة :

– آسفة .. إن أختى منفعلة .. أعطنى عشرة طوابع .. وتعال الأسبوع القادم لتأخذ أكثر ..

(٢)

كانت لوسى تؤمن بالحركة .. يجب أن تتحرك دائما حتى تبقى قصتها مع شوكت بك قصة حية .. مشتعلة .. وسواء كان شوكت صادقا فى وعده بالزواج أو لم يكن فيجب أن تتحرك ..

وكانت الحـركة الأولى التى يجب أن تتـحـركـها هى الطلاق من زوجـهـا .. ولم تكـن تنتظر أى شىء مـشكلـة وهى تطلب الطلاق .. لقـد عـودها زوجـها زكى على أن يستـسلم لهـا .. وعـودها على أن يترك لهـا الحـرية .. كل شىء مبـاح بما فيـه حقها فـى الطلاق .. ولكنها كانت قد نسيت شيـئا .. نسيت أن زكى يحبها إلى حـد أنه اكتفى بحبها عن كل تطـلعاته وأطماعه فى الحيـاة . وهذا الاستـسلام لها لم يكن اسـتسـلام ضعـف ولكنه استسـلام حب .. إن الحب جعل منه زوجا مسـتسلما .. يكفيـه أنها بجـانبـه .. هى والأولاد .. ونسـيت لوسى أن هذا الضعف يمكن أن ينقلب إلى قوة الدفاع عن الحب .

وكانت قد عـادت إلى البيت .. واجتمعت العـائلة حول مائدة العشاء .. ولوسى مرحة سعـيدة تضحك مع ابنها ايزاك وتقبل ابنتـها ياسمـين وتدلل زوجـها زكى .. ثم بعـد العشـاء شدت زوجها إلى حجرتهمـا وأغلقت وراءهما الباب ثم جلست بجانبه

فوق الفراش وقالت مبتسمة وهى تمسح بأصبعها فوق شعر رأسه :

– زكى .. هناك شىء أريده منك ..

وقال زكى وهو يحتضنها بعينيه :

– اطلبى .. كل شىء .. وأى شىء ..

قالت من خلال ابتسامتها :

– الطلاق ..

واتسعت عينا زكى كأنه تلقى ضربة على رأسه ثم هدأت عيناه وأطلق ضحكة واعتبر أن ما تقوله لوسى مجرد نكتة تداعبه بها .. ولكن لوسى عادت تقول :

– إنى اتكلم جادة يا زكى .. أريد الطلاق .. وقفز زكى من فوق الفراش ووقف قبالتها صارخا :

– ما هذا الذى تقولين .. لماذا هذا الجنون ..؟

وقالت لوسى فى هدوء وهى لا تزال تبتسم له :

– زكى كن هادئا .. أنت تعرف أنى لا أفكر فى شىء غير صالحنا .. صالح العائلة .. تذكر كم كان دخلنا يوم تزوجنا وكم نكسب الآن .. وتذكر عندما كنا نعيش فى الظاهر وأين أصبحنا نعيش الآن .. وكل ذلك لأنك كنت تثق فى وتتركنى اتصرف .. والآن أريد الطلاق لأنه أيضا فى صالحنا .. وصرخ زكى وعيناه تنطلقان بشرارات الغضب :

– كيف يكون الطلاق فى صالحنا .. أنك مجنونة ..

وقالت لوسى وهى لا تزال هادئة :

– سأتزوج زوجا يشرفك ويشرف الأولاد .. واشتدت

النظرة الغاضبة فى عينى زكى وصمت برهة وهو يحملق فيها كأنه يحاول أن يكشف سرها ويفهمها ثم نطق قائلا :

– من .. من هذا الذى يشرفنى ويشرف الأولاد ..

قالت وابتسامتها تتسع :

– ستعرفه بعد الطلاق ..

وصرخ زكى :



إنك ساقطة .. مومس .. كيف يشرفنى أن أعطى زوجتى لرجل آخر .. كيف يشرف الأولاد أن يستولى رجل على أمهم..

وسحبت لوسى ابتسامتها وقالت فى حدة ترد على صرخته :
– يشرفك إنى لا أبيعك بثمن رخيص .. ويشرف الأولاد أن أمهم ترتفع بهم إلى مستوى أعلى ..
وعاد زكى يصرخ :
– اسمعى .. أنا لم اتزوجك حتى أبيعك بأى ثمن .. لم اتزوجك لاترك حى الظاهر واسكن فى جاردن سيتى . تزوجتك لتكونى لى .. وستبقين لى إلى أن تموتى .. حتى جثتك ستكون لى وتدفن معى فى قبرى ..
وصرخت لوسى :
– ماذا جرى لك .. لماذا لا توافق كما عودتنى .. أنت تعلم أنى استطيع الطلاق رغما عنك .. تعلم أنى أستطيع كل شىء .. لا تجعلنى أتركك وأنا اكرهك .. لقد بدأت منذ هذه اللحظة اكرهك .. اكرهك .. ورفع زكى يده وانهال بصفعة على وجه لوسى .. ونظرت إليه فى تعجب .. أنها أول مرة فى حياتها ترى زكى هكذا .. لم تره أبدا كما تراه الآن .. وأخذت تتحسس مكان الصفعة فى ذهول .. وهو يصرخ :
– لا طلاق .. لن اتركك .. إنك لا تعرفين من أنا .. دللتك حتى اعميتك عما استطيعه أنا أيضا .. وصرخت :
– لن أبقى معك .. لن أبقى هنا ..
وشدت ثوبا وضعته فوق قميص النوم وخرجت من الغرفة تجرى .. وخرج ابنها وابنتها على صوت الصراخ يجريان إليها وهما يصرخان :
– ماما .. ماما ..

وقالت وهى تجرى وتتعثر فى دموعها التى تنهمر على خديها
– احميانى .. إنه يضربنى ..
وبدأ الولدان يبكيان .
وزكى واقف مشدوها ..
وفتحت لوسى باب الشقة وخرجت وهى بثوب البيت وفى قدميها شبشب .. خرجت إلى الشارع وألقت بنفسها فى سيارة أجرة .. وذهبت إلى صديقتها راشيل التى تقيم فى شقة قريبة.. وهدأت دموعها .
وبدأ ذكاؤها يعمل فى هدوء داخل عقلها .
إنها لن تعود بعد اليوم إلى زوجها زكى .. ورفعت سماعة التليفون وقالت لشوكت بك :
– لقد تركت البيت ..
وقال شوكت فى دهشة :
– لماذا ؟
وقالت :
– غدا ساحكى لك أرسل السيارة إلى بيت صديقتى راشيل.. السائق يعرف العنوان ..
وابتسمت وهى تعيد سماعة التليفون .. ابتسمت كأنها تستعيد ثقتها بنفسها .. إنها لم تكن تنتظر أن يرفض زوجها زكى الطلاق .. فوجئت بشخصية لم تكن تعرفها عنه .. ولكنه معذور .. إنه يحبها .. إنها لطشة من لطشات الحب .. وبعدها سيوافق .. إنها واثقة . إنها تستطيع كل شىء .. ولكن المهم أنها لن تعود أبدا إلى بيتها .. يجب أن تخطط كل حياتها على أنها لن تعود ..

أين تقيم ؟

إنها تستطيع أن تقيم فى قصر شوكت على ترعة المنصورية .. لا أحد يقيم فى هذا القصر .. وشوكت سيفرح بها هناك .. ولكن لا .. يجب أن تظل محتفظة بشخصيتها مستقلة .. ثم إن القصر بعيد وهى تريد أن تكون قريبة من ابنها ايزاك وابنتها ياسمين .. وتريد أن تكون قريبة من زوجها زكى حتى يتم الطلاق ..

وأقامت فى حجرة ببنسيون تملكه صديقتها مدام راشيل وقد اعترض شوكت على اقامتها فى بنسيون .. إنه يريد أن يستأجر لها شقة تقيم فيها .. لا .. ليس الآن .. يجب أن تبدو فى المجتمع كأنها سيدة وحيدة فى انتظار الطلاق .. وكانت تتصل كل يوم بابنها وابنتها .. كانت تتصل بياسمين أكثر .. إنها أقرب إليها .. وهى التى حملت إليها ثيابها ومصوغاتها خارج البيت .. انها الآن فى الرابعة عشرة تستطيع أن تكون ست بيت .. وقد بدأت تتحمل مسئولية ست البيت فعلا وترعى اباها وأخاها .. ولوسى تطمئن عليها كل يوم أكثر من مرة وترسل لها كثيرا مما يحتاجه البيت .. أما ابنها ايزاك فهو متباعد عنها .. تحس أنه غير موافق على تركها البيت وغير موافق على طلاقها من أبيه .. بل تحس أنه يشك فى أن لها علاقة برجل آخر ويغار عليها ويلوى شفتيه فى قرف خلال المرات القليلة التى جاء إليها فى البنسيون أو عندما كانت تتفق معه ومع أخته على تناول الشاى فى جروبى .. إنه أكثر قربا إلى عقلية وشخصية أبيه ..

وهى قد أشركت عائلتها وأصدقاءها فى محاولة اقناع

زوجها زكى بالطلاق .. ولكنه مصر على الرفض .. لن يطلقها .. وهو واثق أنه يستطيع أن يعيدها إليه .. وقد عرضت أن تتنازل عن شقة جاردن سيتى وهى مؤجرة باسمها .. وعرضت عليه أن تترك له كل ما فى البيت .. له وللأولاد .. ولكنه رفض .. لا طلاق ..

وفى كل يوم تلتقى بشوكت .. والسيارة تحت أمرها .. تحملها إلى قصر المنصورية .. إنه المكان الذى يرتاحان إلى اللقاء فيه بجانب اسطبل الأولاد .. أولاده .. خيوله .. لم يخرجا بعد إلى الأماكن العامة ويواجها الناس بقصتهما .. وفى كل لقاء يبحثان مشكلة الطلاق .. ولوسى تؤكد له أنها لا تطلب الطلاق بسببه ولا من أجله ولكنها تطلبه لأنها لم تعد تستطيع أن تعيش مع هذا الزوج .. تروى له حكايات كاذبة عن قوة زكى وسفالة زكى .. إنه يضربها .. إنه يعاشر النساء علنا .. حتى لا تترك شوكت يؤنب نفسه ولا يعذبه ضميره إذا اقتنع انه السبب فى الطلاق .. ولكنها تحس أن شوكت ليس متحمسا لطلاقها من زوجها .. ربما لأنه يفضل أن تنتظر حتى وفاة زوجته رغم أنه وعدها بالزواج فى أى وقت تستطيع فيه الزواج .. له حق ،

إنه لن يحس بحريته وبحقه كاملا فى الزواج منها إلا بعد أن يتحرر من زوجته .. إلا بعد أن تموت .. ولكن .. لعل شوكت كباقى الرجال .. إذا أحب امرأة متزوجة بغيره فهو يريدها دائما كما احبها .. متزوجة بغيره .. وكأنه أحبها وأحب زوجها معها كما هو مفروض أن يحب أولادها .. لا ..لا يمكن ..

شوكت ليس من هذا النوع .. إنه مثالى فى مبادئه وأخلاقه .. أحبها ليرفعها إليه لا لينزل إليها لتكون حياته لا لتكون لقاء فراش ..

وزكى مصر على عدم الطلاق ..

لم يبق إلا أن تشهر إسلامها ..

لقد كانت تفكر أن تعلن إسلامها حتى تزداد ارتباطا بشوكت بعد الزواج وحتى تضمن الارث إذا عاشت معه إلى أن ترثه . كانت تعتقد أن طلاقها من زوجها لا يحتاج إلى أن تخرج من دينها .. ولكنها الآن لا تجد وسيلة للهرب من زوجها إلا بالهروب من دينها .

وشوكت ذو الفقار .. الرجل الهادء الراقى فى فكره وفى احساسه بحبيبته لوسى لم يكن يراها أن تسلم .. أنه أحبها وهى يهودية ولعله يفضل أن تؤجل إسلامها إلى أن تموت زوجته .. ولكنه فى داخل نفسه يفرح بإسلامها .. إنه يكسب ثوابا عندما يكتسبها للإسلام .. ولذلك تردد فى حيرته طويلا ومضت أيام قبل أن يستدعى الشيخ عبد اللطيف ليأخذ لوسى إلى الإسلام .. وهو شخصية لها مكانتها فى المجتمعات الإسلامية وفى الأزهر .. وقال الشيخ عبد اللطيف إنها يجب أن تسلم عن اقتناع لا عن غرض .. ولوسى تؤكد اقتناعها بالإسلام حتى لو كان اقتناعها بالإسلام هو صدى لحبها لشوكت .. وقد أمضى معها الشيخ عبد اللطيف جلسات طويلة يحدثها عن الإسلام وعن النبى محمد وحفظت على يديه قراءة الفاتحة .. وسورة قل هو الله أحد .. وكل تعاليم الإسلام ..

ولكن هناك شرطا مفروضا .. يجب أن يبلغ الحاخام وأن

تترك له فرصة لإقناعها بالثبات على دينها .. هكذا تنص اللوائح حتى لا يقال أن فى مصر من يفرض الإسلام على أحد رغما عنه .. ولا شك أن الحاخام سيؤيد إسلامها لو عرف أنه الطريق لتتزوج احدى بنات اليهودية من شوكت بك ذو الفقار.. إن تاريخ اليهود يضم قديسات تزوجن من أبطال حماية الشعب اليهودى .. صفية اليهودية تزوجت النبى محمد .. ودليلة تزوجت شمشون .. ولوسى من حقها أن تصر على الإسلام مهما حاول معها الحاخام .. ولكنها رغم ذلك لا تريد أن تقابل الحاخام .. إنها لا تستطيع .. تحس كأن الحاخام هو ضابط بوليس الآخرة أرسله الله ليقبض عليها .. أرجوكم اعفونى من هذا الشرط .. وابتسم الشيخ عبد اللطيف وأعفاها من هذا الشرط اكراما لشوكت ذو الفقار .. ولأجل خاطر شوكت بك لم تذهب لوسى بنفسها إلى مبنى الشهر العقارى لتسجل إسلامها ولكن جاء موظف الشهر العقارى إليها فى قصر المنصورية .. وجلست تردد مع الشيخ عبد اللطيف .. اشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. أصبحت مسلمة ..

وأصبح اسمها زينب .

وقد كانت تفكر منذ البداية فى الاسم الذى تختاره لنفسها إذا اسلمت .. وفكرت أن تختار اسما مشتركا .. يصلح المسلمين واليهود .. يمكن أن تسمى نفسها هاجر .. أو فتنة .. ولكنها مالت على صدر شوكت تسأله ماهو أحب اسم إليه .. إنه اسم أمه .. زينب .. وقال شوكت أنها ستصبح من أفراد العائلة فيكون اسمها زينب ذو الفقار لا . رفضت لوسى .. لا ..

إنها فقط يمكن أن تكون حرم ذو الفقار .. أما اسمها فهى تريد أن يظل مرتبطا بعائلتها .. هنيدى .. إنه اسم للمسلمين أيضا ..

وأصبح اسمها الكامل زينب محمد هنيدى .. وأحست بضيق يزحف على صدرها بعد أن انتهت من تسجيل اشهار إسلامها .. أنها لا تريد أن ترى شوكت ولا أن ترى الشيخ عبداللطيف .. تريد أن تبكى .. وركبت السيارة فى طريق عودتها إلى البنسيون الذى تقيم فيه وبكت .. لم تستطع أن تكف عن البكاء.. إنها لم تبك أبدا كما تبكى الآن .. ربما كانت تبكى يهوديتها .. إنها لم تحس أبدا بانها يهودية كما تحس الآن .. وكل شعائر اليهودية تطوف بها .. وجلسات العائلة حول أبيها كل سبت لتستمع إليه وهو يذكرهم بتاريخ اليهود .. هذه الجلسات التى كانت تهرب منها فى صغرها ولم تشارك فيها بعد أن كبرت أصبحت تذكرها كلها الآن من خلال دموعها ..

وتذكرت صلاة «كل النذور» أنها صلاة يهودية تفتح بها الطقوس الدينية فى مساء عيد يوم الغفران .. وقد كانت تحب هذه الصلاة .. لأنها الصلاة الوحيدة التى أضاف إليها اليهود موسيقى دينية .. وهى صلاة يعلن فيها المصلى إلغاء جميع العهود والنذور التى قطعها على نفسه طول العام ولا يريد أن يتقيد بها . وتتلى ثلاث مرات حتى يتاكد إحساس اليهودى بالتخلص من ذنب تخيله وخيانته لجميع العهود والنذر التى قطعها على نفسه ثم يبدأ الاحتفال باقدس يوم وهو يوم الغفران مرتاح الضمير .. وقد قيل إن هذه الصلاة قد خصصت لليهود الذين تضطرهم ظروفهم إلى إشهار إسلامهم

أو إشهار المسيحية فإذا تلوا هذه الصلاة أعفتهم من الإسلام أو المسيحية وعادت بهم إلى اليهودية .

ومن يدرى

لعلها فى يوم من الأيام ستصلى صلاة كل النذور .. وهى لا تزال تبكى فى السيارة . وطلبت من السائق أن يمر بها فى شارع الملكة فريده لتشترى من دكان .. ولكنها لم تكن تريد أن تشترى شيئا .. إنها فقط تريد أن تمر بالسيارة أمام المعبد اليهودى هناك .. ليرى دموعها .. أنها تبكى يهوديتها .. لعلهم يعذرونها .. ونامت بين الدموع .

وفى اليوم التالى .. لم يبق إلا إجراءات الطلاق .. أصبحت طالقا بحكم القانون .. لا يحق لمسلمة أن تتزوج غير مسلم .. وهى مسلمة وزوجها يهودى ..

ودق جرس التليفون وابنتها ياسمين تهلل قائلة :-

- ماما .. هل عرفت ماحدث .. لقد أعلن بابا إسلامه وأسلمنا .. أصبحت مسلمة وأخى مسلما .. لم يغير اسمى ياسمين .. واسم بابا أصبح أبو بكر عبد الله .. وأخى اسمه خالد عبد الله ! .. وسماعة التليفون ترتعش فى يد لوسى .

لعل زكى كان يعلم منذ البداية أن لوسى ستضطر إلى أن تكون مسلمة .. فمادام لا يريد أن يطلقها فأسرع طريق لفرض الطلاق عليه هو الإسلام .. وهى لن تكتفى بالطلاق بل قد تحصل على حكم بضم ايزاك وياسمين إليها .. أنها أم مسلمة ولا يمكن أن تترك ولديها لأب يهودى .. وزكى رغم السذاجة التى تبدو عليه يستطيع دائما أن يجد حلا لمشاكله .. والحل الوحيد هو أن يعلن إسلامه هو الآخر ويعلن معه إسلام ايزاك

وياسمين .. خلاص .. كلنا مسلمون .

وجنت لوسى .

ضاع الطلاق وضاع معه الزواج من شوكت .. والمحامون يؤكدون لها أنها لم يعد أمامها من طريق إلا أن تلجأ إلى المحاكم الشرعيه .. مسلمة ترفع قضية طلاق على مسلم .. ولعل القضاة عرفوا أنها أصبحت مسلمة حتى تحصل على الطلاق وأنه أصبح مسلما حتى لا يطلق .. ولجأت فعلا إلى المحاكم الشرعية ولم تكن هذه المحاكم قد ألغيت بعد . وأصبح عليها أن تختار من بين المحامين محاميا شرعيا شيخا دلها عليه الشيخ عبد اللطيف ..

والأيام تمر وكل شيء يتغير فى لوسى .. أنها تريد أن تعيش شخصية جديدة .. شخصية امرأة مسلمة .. ولكن كيف .. حتى اسمها الجديد لا تستطيع أن تتعود عليه .. زينب.. والمجتمع الذى ولدت وعاشت فيه يعرفها كيهودية باسم لوسى .. يجب أن تنتقل إلى مجتمع آخر لا يعرفها إلا كمسلمة ولا يناديها إلا زينب .

وكان أول ما فعلته أن تركت البنسيون الذى تقيم فيه لتبتعد عن صاحبته صديقتها اليهودية راشيل . وقبلت أن يؤجر لها شوكت شقة مفروشة فى الزمالك .. وبدأت تتباعد عن كل من كانت تعرفهم من اليهود .. بل لم تعد تزور عائلتها ولا ترى شقيقتها ليزا .. إنها تقسو عليهم وتقسو على نفسها أكثر .. إنها تقطع نفسها عن الدنيا كلها .. فالدنيا كلها كما تعودتها هى دنيا اليهود .. ولكن يجب أن تتحمل حتى تجد شخصيتها الجديدة فى الدنيا الجديدة .

وجاءت بامرأة لتعمل فى البيت .. مسلمة .. نوبية .. وكانت تجلس معها طويلا لتكتشف فيها احساس المسلم .. ثم بدأت تأخذها معها وتذهب لزيارة السيدة زينب والحسين .. وكانت تقرأ الفاتحه .. تقرأها فعلا حتى تعود نفسها على أن تعيش الإسلام .. وجيرانها فى العمارة التى تقيم فيها كثير منهم عائلات مسلمة .. فكانت تتعمد أن توجد صلة بينهم وبينها .. إنهم لا يعرفون عنها إلا أنها زينب هانم .. وتتبادل معهم الزيارات .. ولكنها لا تلبث أن تكتشف فى نظراتهم وفى أسلوب أحاديثهم كأنهم يكشفون سرها .. بدأوا يعرفون أنها يهودية .. ومن كانت يهودية فهى تبقى دائما فى نظرهم يهودية .

وأسعد لحظاتها كانت عندما تأتى إليها ابنتها ياسمين . إنها لم تترك أبدا ابنها وابنتها .. إنها تتحدث إليهما بالتليفون كل يوم وتطمئن عليهما كأنها تعيش معهما .. ماذا يأكلان اليوم .. وأين ذهب ايزاك .. لا .. يجب أن تعود نفسها على أن اسمه هو خالد .. وهل استعادت ياسمين ثيابها من عند المكوجى .. وكم دفع أبوهما اليوم مصروفا للوازم البيت .. ومن زارهم .. ومن تكلم فى التليفون ..و..و.. إنها تعيش معهم لحظة بلحظة .. ترسل إليهما كثيرا من احتياجات البيت .. لا تشترى لبيتها إلا وتشترى أيضا لبيت أولادها .. وزوجها زكى يعلم ذلك .. ورغم ذلك فهو يحرم على ياسمين وخالد أن يزورا أمهما .. وخالد يستسلم لهذا الحرمان .. الحرمان من أمه.. وقد تمضى أسابيع طويلة قبل أن يخالف أوامر أبيه ويأتى لزيارتها .. ولكن ياسمين لا تستسلم .. إنها تستطيع دائما أن تضعف من اصرار والدها حتى يسمح بزيارة أمها ..

وأحيانا تستطيع أيضا أن تبيت معها .. إن ياسمين قطعة من أمها .. إنها الآن فى الخامسة عشرة من عمرها وقد بدأت تأخذ منها هذه الأنوثة المثيرة التى اشتهرت بها .. هذه الخطوط الجريئة التى تلف نهديها وخصرها .. وهذه الشفاه الدسمة التى تحمل دعوة .. وهاتان العينان الشرقيتان اللتان يتوه فيهما كل من يلتقى بهما .. وزينب تحس بأن ابنتها ياسمين تعيش كل ماتعيشه هى .. تعيش اليهودية والإسلام .. وتحس أن ابنتها أقوى منها .. إن ياسمين ليس من طبيعتها أن تتكلم كثيرا ولا أن تشكو أبدا ولكن جبينها العالى يضفى عليها لمحة ناصعة من الذكاء الصامت .. إنها لا تقول أبدا ماذا يمكن أن تفعل ولكنها تفعل دائما .. وكانت زينب قد قدمت ياسمين إلى شوكت وهى تحس كأنها لا تستطيع أن تحتفظ بشوكت إلا وبجانبها ياسمين .

وقد أصبح شوكت هو كل شىء ..

إنه يدفع إيجار الشقة المفروشة ..

وقد فتح حسابا فى البنك باسم زينب محمد هنيدى .. حساب مفتوح لا ينتهى .. وحمل إليها بنفسه دفتر الشيكات وقدمه إليها كأنه يعتذر لأنه يعطيها .. وقبلته وهى لا تنظر فى عينيه كأنها خجلة لأنها تأخذ   أنها لم تعد تستطيع أن ترفض حتى تصل إلى ماهو أكثر .. أنها فى حاجة فعلا لأن تأخذ .. وهى تعطيه .. تعطيه كثيرا .. لقد تركت بيتها لتعيش فى بيته .. وكانت كل يوم تذهب إلى أرض المنصورية وتشرف على خيوله . وتدير مزارعه . وتطلق الحياة فى قصره .. وقد أصبح له حق آخر .. الحق فى أن يأتى ليزورها فى البيت الذى

استأجره لها ليتناول معها طعام العشاء .. ولكن لا شىء أكثر .. إنها لا تعطيه نفسها .. لا يعاشرها معاشرة الأزواج لأن الزواج لم يحدث بعد .. وكلاهما يعيش فى حالة انتظار مرير متعب .

انتظار طلاقها ..

وانتظار وفاة زوجته ..

وانتظار انتقالهما إلى مجتمع مفتوح يضمهما معا ويعترف بهما .. المجتمع الذى تعيش زينب على أمل الوصول إليه .. مجتمع المسلمين .. بعد أن فقدت مجتمع اليهود ..

ومر حوالى عام وهما لا يزالان يعيشان الانتظار ..

ولكن ..

إلى متى يستطيع شوكت أن يعيش الانتظار وهو فى هذا العمر الحساس .. عمر الثانية والخمسين ..

إنها تشفق عليه ..

وتخاف عليه ..

قد يضيق بها وينصرف عنها ..

ودق جرس التليفون فى ساعات الفجر .. إنه شوكت .. لقد ماتت زوجته .. وسمعت زينب صوته كأنه يبكى .. وقالت تعزيه .. لقد استراحت .. قالتها فى لهجة تعبر عن منتهى الحزن والأسى حتى تخفف إحساسها بأنها هى التى استراحت.. هى لا الزوجة التى ماتت وقالت كأنها تهم بالبكاء :

- سأنتظرك فى المنصورية ..

وجاءها فى الليل بعد أن انتهى من اجراءات الجنازة والدفن.. إنه منهار فعلا والدموع لا تزال تلمع فى عينيه .. هل كان يحبها .. إنها على الأقل أم أولاده .. أنها شريكة ثلاثين

عاما من عمره .. ونظر إلى زينب نظرة غريبة كأنه يتهمها بأنها هى التى قتلت زوجته .. أو كأنه يكرهها لأنه جاء إليها قبل أن تمضى ساعات على دفن زوجته .

وجرى إلى غرفة نومه ..

وجرت زينب وراءه :

– شوكت .. لقد كنت تريد لها الراحة .. وقد ارتاحت .. وأنت أيضا من حقك أن ترتاح .. لا تعذب نفسك .. ارتاح ياحبيبى ..

وخلعت عنه ملابسه وأرقدته على فراشه ورقدت بجانبه .. وهى تقبله .. وهو يرتاح بين شفتيها .. إنه يحس أنه يخرج من القبر حيث دفن زوجته إلى الحياة .. وأعفته زينب من الانتظار يعيش معها الحياة منذ الليلة .. كل الحياة ..

وأصبحت له ..

كلها له ..

بلا زواج ..

وحملت منه .

تركت نفسها تحمل منه .

بلا زواج أيضا .

لقد أرادت ذلك .. وهى واثقة .. مطمئنة ..

أحنت لوسى رأسها على صدر شوكت بك وقالت وهى تفتعل ابتسامة خجولة :

– إننى حائرة .. هل أقول لك أو لا أقول .

قال ضاحكا :

قولى ..

قالت وهى تداعب صدره بأصابعها :

– هل تفرح لو قلت لك .. من يدرينى .. قد تغضب ..

وقال وهو يحيطها بذراعه :

– إنى أفرح لكل ما تقولينه .

وترددت قليلا ثم قالت فى صوت خفيض :

– إنى حامل ..

واهتز شوكت بك ثم أبعدها عن صدره برفق وقال وهو ينظر فى عينيها من خلال ابتسامة باهتة :

– ماذا تقولين ؟

وقالت وهى تبادله ابتسامته الباهتة :

– لقد سمعتنى يا شوكت .. إنى حامل .

قال وابتسامته لا تتسع :

– وماذا سنفعل ؟

قالت وقد سحبت ابتسامتها :

– ماذا تريدنى أن أفعل .. كنت أعلم أنك لن تفرح :

قال وهو يمد ذراعيه إليها ليعيدها إلى أحضانه :

– لوسى .. إننا لم نتزوج بعد .

وقفزت لوسى من جانبه وهى تصرخ :

– لا تطلب منى أن اتخلص منه .. لن أجرى عملية .. سأحتفظ به سواء تزوجنا أو لم نتزوج .. إنى أريده حتى لو لم تكن أنت تريده .. وأخاف على نفسى وأنت لا تخاف على .

وقفز وراءها واحتضنها بين ذراعيه وقال وهو يقطع كلماته بقبلات ينثرها على خديها :

– لا تقولى هذا الكلام .. إنى افرح به أكثر من فرحتك .. أحس كأنى استعيد كل شبابى .. وأخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك .. انت كل شىء .. كل ما هناك أنى فوجئت .. ثم لا ادرى كيف نتصرف الآن فى موضوع الزواج .

قالت وهى تعود وتهدأ بين ذراعيه :

– تصرف كما تريد .. لم يعد يهمنى إلا إحساسى بأنى حامل .. كأنى أحملك أنت فى بطنى .

واتسعت ابتسامته كأنه اكتسب كل فرحته وجذبها برفق ليجلسها فوق الأريكة كأنه يخاف على حملها وقال :

– لوسى .. سنتزوج فى أيام .. اطمئنى يا لوسى .

وأخفت رأسها فى صدره ثم قالت بعد برهة :

– قل اسمى يا شوكت .

ونظر إليها فى تعجب وقال ثم كأنه فهم ما تقصده وقهقه عاليا وقال :

– آسف .. زينب .. أنت ولدت لى واسمك زينب .



وقالت من خلال ابتسامتها :

– لا تنس .. أنى أريد أن أكون دائما زينب .. لأنى دائما لك .

وانحنى يقبلها قبلة كبيرة ثم قال وهو يهم بالخروج :

– مضطر أن أتركك الآن .. سأستدعى المحامى .. كل شىء يجب أن يتم حالا بأى ثمن .. اطمئنى يا زينب .

وكان هذا هو ما تريده زينب عندما قررت أن تترك نفسها لتحمل .. كانت تريد أن تدفع شوكت لأن يسعى أكثر إلى طلاقها من زوجها وأن يتلهف أكثر على اتمام زواجه بها .. وكانت كالعادة تقامر .. ربما كان شوكت قد أصر على أن تجهض نفسها .. ربما رفض أن يتزوجها ورفض أن يعترف بهذا الجنين .. ابن اليهودية .. وهى لم تكن تستطيع شيئا .. ولكنها كانت تقامر على الجانب الآخر من القضية .. إن شوكت يحبها .. وقد استطاعت أن تدخل فى كل حياته .. أصبح محتاجا إليها حتى فى إدارة اسطبل الخيل والمزرعة .. ثم إحساسه بأنها حملت منه سينفخ صدره بالغرور كما انتفخ عندما أعلنت إسلامها رغم أنه لم يطالبها بالإسلام ولا كان فى حاجة لأن يجعلها تعلن إسلامها كما أنه ليس فى حاجة لأن تحمل منه .

وكسبت الرهان مع نفسها .

وتفرغ الأستاذ سامى أبو جبرة محامى شوكت بك للتفاوض مع زوجها زكى على الطلاق .. وكان زكى يعيش مع ابنه ايزاك وابنته ياسمين فى شقة جاردن سيتى وهو هادئ مطمئن بعد أن أعلن إسلامه وإسلام الولد والبنت .. إنها لن تستطيع أن تفرض عليه الطلاق .. ولن تستطيع أن تطرده من الشقة رغم أنها باسمها .. وقد عرف بحكايتها مع شوكت بك ذو الفقار وسكت.. لم يتدخل .. ولم يحاول أن يثير فضيحة ولا ادعى الغيرة .. إنه يعلم مقدما أنها لا يمكن أن تطلب الطلاق إلا لتتزوج رجلا آخر . والرجل الآخر الذى اختارته يشرفه

فعلا كما قالت له ويشرف العائلة .. على الأقل أنه ليس يهوديا ولو كان يهوديا فهذه خيانة واعتداء على حقه أما وقد اختارت مسلما وشوكت بك بالذات فهذه ليست خيانة إنها صفقة ضخمة رابحة يجب أن يقدرها ويعترف لها بالعبقرية .. عبقرية نساء اليهود اللاتى استطعن بأنوثتهن صيد الملوك والحكام ليضمنوا الأمان والرخاء للشعب اليهودى .. وكما تزوجت صفية اليهودية من النبى محمد لتنقذ قبيلتها بعد أن هزمت فى الحرب رغم أن صفية لم تستطع أن تفرض الشخصية اليهودية لذلك لم يضعها اليهود فى قائمة القديسات .

وكانت زوجته لوسى قد عرضت عليه أن تكتب الشقة باسمه وأن تترك له كل ما فيها وأن تتعهد له بعدم مطالبتها بابنها وابنته .. ولكنه لا يطلق .. ربما كان يريد أكثر .. وقد عرض عليه الأستاذ سامى أبو جبرة ما هو أكثر .. قال له إنه يقدر أن الطلاق ستعقبه مسئوليات جديدة تلقى عليه . فهو يحتاج أن يتزوج امرأة أخرى أو على الأقل محتاج لسيدة بيت تدبر له حياته وحياة ولديه .. وكل ذلك يحتاج إلى مصروفات .. إلى مال .. وشوكت بك يقدر ذلك ومستعد لأن يعوضه عن هذه المصروفات .. سيدفع له خمسة آلاف جنيه إذا طلق لوسى .. وفرح زكى .. لم يكن ينتظر كل هذا المبلغ .. خمسة آلاف جنيه أيامها كانت شيئا كبيرا .. إنه يستطيع أن يبدأ حياة جديدة .. يستطيع أن يكون من رجال الأعمال .

ولكن لوسى فرحت أكثر .. لم تفرح بالطلاق ولكنها فرحت لأن زكى أخذ خمسة آلاف جنيه .. إنه مهما كان فهو أب

لولديها وكل ما يناله يعود إلى ولديها .. بل انها منذ عاشت مع شوكت وهى تنفق على ولديها وعلى الشقة التى يقيم فيها ولداها من أموال شوكت بك .. من أرباح الصفقة التى تعيشها .

وتم الطلاق فى هدوء بمكتب الأستاذ سامى .. ذهب زكى وحده إلى هناك ووقع وثيقة الطلاق واستلم خمسة آلاف جنيه نقدا .. اعتذر عن أن يتسلمها بشيك .. وقد استطاع الاستاذ سامى أن يقنع المأذون بأن يضع لوثيقة الطلاق تاريخا سابقا حتى يتحرر من شهور العدة التى تفرض عدم زواج المطلقة قبل أن تنتهى .

وفى نفس الليلة صحب الأستاذ سامى المأذون إلى بيت المنصورية .. وعقد قران لوسى وشوكت .. وكانت حاملا فى شهرها الثالث .

وقد تزوج زكى أيضا بعد أسبوعين .. لم يتزوج مسلمة .. تزوج يهودية .. تزوج راشيل صديقة لوسى وإن كان قد بقى على إسلامه .

واغتاظت لوسى من زواج زكى .. زوجها السابق .. لماذا يتزوج .. إنها تزوجت لانها وجدت زوجا مشرفا .. صفقة رائعة .. ولكن ما حاجته هو للزواج .. وراشيل امراة عادية لا تشرفها ولا تشرف ولديها .. بل إنها أصبحت لا تطمئن على ابنتها وابنها وهما يعيشان مع راشيل .

وكانت لوسى بعد زواجها من شوكت قد تركت الشقة التى كانت تستأجرها وانتقلت إلى شقة شوكت بك فى الزمالك

ولكنها كانت تقضى معه معظم أيامها فى القصر الريفى بالمنصورية .. وكانت قد بدأت تظهر معه فى المجتمعات .. فى نادى الجزيرة وفى نادى السيارات وبدأت تدعو باسمه أصدقاءه وعائلاتهم إلى العشاء أو الغداء فى المنصورية .

وشوكت لا يرحب بهذه الحياة الاجتماعية أنه يريد أن ينعزل بلوسى وقد قدمها إلى أولاده الأربعة . ثلاثة أولاد وبنت وكل منهم له حياته الخاصة .. كل منهم متزوج وله عائلته .. ولم يعترض أحد منهم على زواج أبيه .. تعرفوا بلوسى فى أدب واحترام وقبلوا الدعوات المتباعدة التى كانت توجهها لهم .. ولكن لم يدعها أحد إلى بيته .. إنهم يذهبون إليها لانها تقيم فى بيت كبير العائلة .. يذهبون إلى أبيهم لا إليها .. ورغم ذلك فلم يكن بينها وبينهم أى مشكلة فقط احترام مفتعل مبالغ فيه .

ولوسى تحرك كل ذكائها لتشد شوكت من عزلته معها وتخرجه إلى المجتمع .. والمجتمع يستقبلها فى دهشة .. وهى دهشة تبدو أحيانا إعجابا بعبقريتها كامرأة استطاعت أن تتزوج هذا الرجل . وأحيانا تبدو فى نوع من التعالى فهى لا تزال يهودية عاملة مانيكير .

والمجتمع الذى أعجب بها هو المجتمع اليهودى .. استسلم نساء ورجال هذا المجتمع للاعتراف بعبقريتها .. لقد حققت رسالة كل يهودية .. رسالة الطموح الذى لا ينتهى .. وأصبح نساء من عائلة عدس أو من عائلة شيكوريل أو عائلة باروخ .. نساء العائلات اليهودية الارستقراطية التى كانت تتعالى عليها

وتحتقرها .. أصبحن يبتسمن لها ابتسامة كبيرة عندما يلتقين بها فى نادى الجزيرة أو نادى السيارات ويتقدمن منها مصافحات .. وبدأت دعوات الارستقراطية اليهودية تصلها إلى حفلات الكوكتيل وحفلات العشاء .. ولوسى تلتقى بهم وتتلقى دعواتهم والشماتة تملأ صدرها .. لقد وصلت إليهم .. ارتفعت إلى الطبقة المتكبرة المتعالية . طبقة أغنياء اليهود الذين يحتقرون فقراء اليهود .. إنها الآن سيدة من سيدات الطبقة الراقية اليهودية .

ولكنها ليست يهودية ..

إنها مسلمة ..

إنها ليست لوسى

إنها زينب ..

وبدأت زينب تتعمد الابتعاد عن المجتمع اليهودى .. أصبحت هى التى تترفع على أفراد هذا المجتمع وترفض دعواتهم وتتجاهل ابتساماتهم .. إنها لا تريد أن يراها أحد من اليهود .. تريد أن ينسى كل الناس أنها يهودية .. تريد أن تعيش فى مجتمع المسلمين .. مجتمع زوجها .. إنها مسلمة .. إنها زوجة شوكت بك المسلم .. وركزت كل جهدها لتعيش مجتمع زوجها .. مجتمع الطبقة الراقية المسلمة .. مجتمع عائلات الأسرة المالكة وأسر الباشوات والبكوات .. إن هذا المجتمع هو المجتمع الأوسع بالنسبة لطموحها .. ولكنها بدأت تلاحظ أن هذا المجتمع لا يستقبلها إلا بصحبة زوجها .. ووجدت أنه ليس من السهل أن تقيم صداقة شخصية بينها وبين سيدات هذا

المجتمع .. إنهن يرفضنها .. لا يردن نسيان أنها يهودية .. وأنها عاملة مانيكير .. وربما يحقدن عليها لأنها استولت على شوكت بك .. خطفته هذه اليهودية .

لا يهم ..

واستطاعت زينب أن تحتفظ بشخصية قوية رغم أنها تقاطع مجتمع الارستقراطية اليهودية ورغم أنها مرفوضة من مجتمع الارستقراطية المسلمة .. ولم يكن لها إلا صديقتان شخصيتان تحتفظ بصداقتهما سرا .. صديقة يهودية تقيم فى مصر الجديدة وكانت تعرفها منذ أيام حى الظاهر .. وهى استر.. وكانت قد تزوجت من مسلم دون أن تغير ديانتها ثم طلقها وتزوجت بعده من زوج يهودى .. وكانت لا تراها إلا فى لقاءات متباعدة .. إما أن تذهب إليها سرا أو تأتى إليها سرا .. وكانت تشعر أنها فى حاجة إلى هذه اللقاءات حتى تعرف من أستر أخبار اليهود .. ثم صديقتها نادية التى عرفتها منذ أن كانت عاملة مانيكير .. وكانت تتبادل معها الأسرار .. إن نادية لا تزال فى نفس المستوى لم تستطع أن تلتقط زوجا يرتفع بها رغم كثرة الرجال الذين عبروا عليها .. وكانت زينب تستريح عندما تلتقى بنادية .. تستريح من هذا الافتعال الاجتماعى الذى تعيش فيه .. تستريح من ذكائها ومن حمل الشخصية التى رسمتها لنفسها .. فنادية تعرف عنها كل شىء وهى تعرف عن نادية كل شىء .. كل منهما كتاب مفتوح للأخرى .. ورغم ذلك فإنها تحتفظ بصداقة نادية أيضا كسر .. لا تقدمها لمجتمعها الجديد ولا تتركها ترفع الكلفة مع زوجها .. إن

ذكاءها يضع لكل شيء حدودا حتى لصداقتها مع نادية .. والابتسامة الواسعة في حياة زينب هي ابنتها ياسمين .

إن ياسمين كلما كبرت اخذت من أمها خطوطا أكثر .. هي الآن في الخامسة عشرة وتكاد تكون صورة من أمها .. جمالها.. وأنوثتها .. وذكاؤها .. وقد أصرت ياسمين على ان تعيش مع امها رغم عناد أبيها .. في حين أن أخاها ايزاك أصر على أن يبقى مرتبطا بأبيه يعيش معه ويقف في صفه .. لا شك أن ياسمين اذكى من أخيها .. إنها تختار الافضل .. بل ان أيزاك لم يعترف بنفسه كمسلم رغم استسلامه لابيه الذي أعلن إسلامه .. لا يريد أن يكون خالد عبدالله انه لا يزال يعتبر نفسه ايزاك راؤول .. في حين أن ياسمين اخذت كامها تعطي من نفسها للإسلام . تريد أن تكون مسلمة .. أو على الاقل تريد أن يعرفها الناس كمسلمة . فعلقت على صدرها قطعة ذهبية تحمل آية الكرسي وتعلمت قراءة الفاتحة .. وكانت تذهب فرحة مع أمها لزيارة ضريح السيدة زينب والحسين .. وتجلس معها يستمعان إلى المقرئ الذي يتلو في البيت كل صباح .. بل إن ياسمين صامت أول رمضان مر بها رغم أن أمها لم تصمه لانها كانت حاملا .

وزينب تصحب ابنتها إلى نادي الجزيرة الذي كان أيامها مقصورا على أبناء الطبقة الراقية .. أبناء الحكام .. الانجليز والعائلة المالكة وأصحاب الأرض .. واستطاعت ياسمين أن تشد إليها كل شباب النادي .. تسير أمامهم بجمالها وأنوثتها وذكائها فيسقطون صرعى احلامهم .. ولم يحاول أحد أن

يعرف أصلها .. لا أحد يهمه أن يعرف إذا كانت يهودية أم مسلمة .. لا أحد يعرف اسم أبيها .. إنها ابنة شوكت بك او على الاقل ابنة زوجة شوكت بك .

وياسمين تعرف قيمة جمالها وأنوثتها وتحتفظ بهما للثمن الغالي .. لمستقبلها .. لطموحها .. وأمها تراقبها من بعيد .. وتختار لها كل صديق .. من هو .. وابن من .. وتسمح لها بأن تحضر حفلات النادي .. والحفلات التي تقيمها عائلات النادي.. ولكن لا علاقة خاصة ولا حب .. وعندما ترقص التانجو يجب ألا تلتصق بمن يرقص معها . ولا تلصق خدها بخده .

وعندما يطلبونها في التليفون فلا تطيل .. يجب أن تبدو كفتاة صعبة .. صعبة جدا .. حتى تختار لها مستقبلها .. تختار لها الزوج .

وجاء الوقت ..

ووضعت زينب ..

وضعت بنتا .. ابنة شوكت بك ذو الفقار .

وفرح شوكت بابنته .. وأراد أن يسميها جلفدان على اسم جدته لأبيه .. وابتسمت زينب وهي في فراشها كأنها تستجدي شوكت بابتسامتها وقالت في ضعف جميل .. ضعف الأم التي احتملت آلام الوضع :

– شوكت .. اريد أن تحقق لي حلما .

قال وهو يحتضنها بعينيه :

– كل أحلامك ..

قالت

– حلمت أنى وضعت بنتا وسميتها هاجر .. وقد جاءت البنت فلتحقق لى بقية الحلم ولنسمها هاجر .

ورفع شوكت عينيه فى دهشة ثم ابتسم ابتسامة مرحة وأخذ يردد .. هاجر .. هاجر .. ثم قال :

– ليس فى العائلة كلها اسم هاجر .. هذا اكتشاف جديد .. موافق . هاجر .

ثم مال يقبلها فى حب وفرح ..

ولم تكن زينب قد حلمت هذا الحلم .. ولكنها كانت تريد اسم هاجر .. اختارته بلا تعمد .. ولكن ربما لأنها فى داخلها كانت تريد أن تحتفظ لابنتها باسم يجمع فيها كل الشخصيات.. الشخصيات التى كانت يهودية ثم أصبحت مسلمة .. واسم هاجر هو للمسلمات واليهوديات والمسيحيات .

والأيام تمر .

وكل البيت يعيش كل ساعاته فرحا بهاجر ما عدا ياسمين .. إنها ليست فرحة باختها هاجر ولا تعطيها شيئا من الفرح أو الاهتمام أو الرعاية .. تكاد تتجاهلها .. وأمها تنظر إليها أحيانا فى لوم ولكنها تعود وتبتسم .. إنها تغار من أختها .. هذا شىء طبيعى .. ربما كانت تتمنى أن تنجب أمها ولدا لتبقى هى الابنة الوحيدة .

وجلست ياسمين مع أمها وبينهما هاجر وقالت وهى تدعى السذاجة :

– هل سنعلن إسلام هاجر ..

وقالت زينب وهى تنظر إلى ابنتها فى دهشة :

ان هاجر ولدت مسلمة .

وقالت ياسمين وهى تهز كتفيها كأنها لا تبالى :

ليست مثلى ..

وقالت الأم كأنها تهدىء غيرة ابنتها :

لا تقولى هذا الكلام .. إنها ابنة أمك .. وأبوها أصبح أباك

وسكتت ياسمين لحظات ثم عادت تقول وهى تدعى السذاجة

– ماما .. لو حدث أى شىء .. وأصبحنا وحدنا .. بلا بابا شوكت .. هل نعود يهودا .. وهل تصبح هاجر يهودية ؟

ونظرت زينب إلى ابنتها وهى حائرة هل تسكتها أم تجيبها . ثم قالت وهى تنظر إليها كأنها تشفق عليها من غيرتها :

– إننا .. اقصد اليهود ينسبون الابن أو الابنة لأمها .. فإذا كانت يهودية فأولادها يهود .

وقالت ياسمين وكأنها فرحت :

– أى أن هاجر مثلى .. يهودية أسلمت .

وقالت الأم وهى تبتسم ابتسامة ضعيفة :

– ولكن هناك شىء آخر .. فإن اليهودية إذا أنجبت من غير يهودى فإن ابنها يعتبر ابنا غير شرعى .. لكنها لو أنجبت من يهودى بلا زواج فهو ابن شرعى أما إذا كان الأب ليس يهوديا فالابن غير شرعى حتى بالزواج .

وقالت ياسمين ضاحكة :

– أى أننى أنا ابنة شرعية وهاجر ابنة حرام .

وصرخت زينب :

– أنت مجنونة .. إياك أن أسمع منك مثل هذا الكلام .. كلنا مسلمون .

وضحكت ياسمين ضحكة صارخة وجرت من أمام أمها .

والأيام تمر .

وزينب محتفظة بشخصيتها بين المجتمع اليهودى الذى تهرب منه حتى تنسى وينسى الناس أنها كانت يهودية . والمجتمع الإسلامى الذى يتعالى عليها ولا يريد أن ينسى أنها يهودية .

وكانت المشكلة بين العرب واليهود فى فلسطين تشتد .. وزينب تحاول أن تبتعد عنها بفكرها .. لا تريد أن تعرف شيئا.. لا تريد أن تعرف ماذا يقول العرب ولا ماذا يقول اليهود.. وهى فى قرارة نفسها تؤمن بأن فلسطين من حق اليهود .. لقد عاشت عمرا طويلا وهى تنتظر أرض الميعاد وعندما كانت تصلى كانت تردد .. إلى اللقاء فى أورشليم .. ولكنها تريد أن تهرب من هذا الإيمان .. تريد أن تهرب منه حتى لا يكشفها .. سواء عاد اليهود إلى أرض الميعاد أو بعد مائة سنة فلا يهم . المهم أن يتركوها فى حالها .

ولكن المشكلة تصل إلى عام ٤٨ .. الحرب .. اليهود والعرب يتحاربون .. والدم يغلى فى عروقها .. إنها تتمنى أن ينتصر اليهود .. بل إنها تعلم أنهم سينتصرون .. تعلم بإيمانها .. أنه

القدر المكتوب .. ولكن لماذا الحرب .. إنها لا تريد قتل مصرى واحد .. لماذا نقتل المصريين كما انها لا تريد أن يقتل يهودى واحد .. لماذا تقتلون اليهود .. لماذا لا يتم كل شىء بالكلمة الحلوة كما جمعنا دائما فى مصر الكلام الحلو . لماذا لا يتفقون بالكلام الحلو على أن تعود أرض الميعاد إلى أصحابها .

ودق جرس التليفون .. إن صديقتها استر تريد أن تلقاها .. استر صديقتها اليهودية الوحيدة التى أبقت عليها والتى تنقل إليها دائما أخبار المجتمع اليهودى .. ورغم ذلك فهى لا تعودها على أن تحادثها بالتليفون حتى لا تفضح صداقتها لها .. لابد أنها أخبار هامة التى دفعتها إلى حديث التليفون .

وأخذت سيارتها وانطلق بها السائق إلى مصر الجديدة حيث تقيم استر .. ودخلت إليها ملهوفة :

– خير ماذا حدث ؟!

وقالت استر وكأنها تنعى إليها عزيزا :

– هل سمعت أخبار ابنك .

واتسعت عينا زينب فى هلع وقالت قبل أن تنطلق صرختها .

– لا .. ماذا حدث ؟

وقالت استر وهى تمصمص شفتيها فى حسرة :

– لقد اتفق مع بعض أصدقائه على أن يسافروا إلى قبرص ومنها إلى تل أبيب ليشتركوا فى الحرب .

وصرخت زينب :

– هل سافروا .

وقالت استر :

– لا .. لم يسافروا بعد .. سمعت الخبر أمس من ابنى .

وقالت زينب وكأنها تلفظ أنفاسها



– هل يسافر ابنك معهم ..

وقالت استر وصوتها فيه رنة كأنها تتباهى بابنها .

– لا .. لقد أقنعته أن يبقى ..

وقالت زينب وهى تكاد تنهار :

– وأين أجد ابنى الآن ؟..

قالت استر :

– لعله فى بيت أبيه .. ابنى كان يحادثه فى التليفون .

وشدت زينب ساقيها وخرجت إلى سيارتها وذكاؤها يشتعل بالنار .. ماذا تفعل .. كيف تنقذ ابنها وتنقذ نفسها من هذا الخراب .

وطلبت من السائق أن يتجه بها إلى جاردن سيتى .. إلى الشقة التى تركتها لزوجها .. إنها منذ تركت زوجها اى منذ أكثر من ثلاث سنوات لم تدخل هذه الشقة .. وابتسمت لنفسها ابتسامة ضيقة أعادت لها الثقة فى نفسها وقاومت بها الانهيار .. إنها أيامها كانت فى معركة وقد انتصرت فيها حتى أصبحت زوجة شوكت بك ذو الفقار .

واستقبلتها على الباب صديقتها القديمة راشيل التى أصبحت الزوجة وست البيت .

وقالت زينب فى تعال كأنها تصدر أمرا :

– أين خالد ؟

وقالت راشيل وهى تنظر إليها فى تحد :

– ألا نتبادل التحية أولا ..

وقالت زينب فى حدة :

– لا وقت عندى .. أرجوك ..

وهزت راشيل كتفيها كأنها تحتقرها وخطت إلى داخل

البيت وبعد ثوان خرج الابن إلى أمه .. وهمست زينب وحنانها يخفق مع صوتها :

– خالد ..

وصرخ خالد فى تبجح :

– أنا لست خالدا .. أنا ايزاك .. وأبى ليس أبوبكر عبدالله إنه زكى راؤول .. وأمى ليست زينب إنها لوسى هنيدى .

وقالت زينب كأنها تتوسل إليه :

– لنعش الواقع يا ابنى ..

وعاد ايزاك يصرخ :

– الواقع هو أنى يهودى .. أعيش كيهودى وأفكر كيهودى ومسئولياتى هى مسئوليات كل يهودى .. وأنت .. أنت يهودية .. لا تتركينى أنكر أنك أمى .

وقالت زينب وهى تقترب منه وتعلق ذراعيها فوق كتفيه .

– لك حق يا ابنى .. من قال إننا لسنا يهودا .. لو لم نكن يهودا لما جئتك اليوم فقد سمعت أنك تنوى السفر إلى تل أبيب.

وأزاح إيزاك ذراعى أمه عن كتفيه وقال فى لهجة الجندى المقاتل :

– فعلاً .. هذا ما تفرضه علىّ مسئوليتى كيهودى .

قالت زينب وهى تستعين بالصبر :

– هل وافق أبوك ؟

قال ايزاك وهو يقلب شفتيه فى احتقار :

–لا يهمنى وافق أو لم يوافق .

قالت زينب وهى تبتسم له ابتسامة مفتعلة :

– إنك يا ابنى تترك إحساسك يغلب عقلك .. لو كانوا فى حاجة إليك فى تل أبيب لاستدعوك قبل أن يبدأ القتال .. أما الآن فهم فى حاجة إليك هنا لا هناك .

قال إيزاك فى لهجة خطابية :

– لا تحاولى .. إنى أعطى نفسي لدينى ولمستقبلنا .. مستقبل كل اليهود .

وقالت وهى تنظر إليه فى لوم :

– إنك تعطى نفسك للهواء .. ستكون لا شىء هناك وإلى أن يدربوك على القتال سيكون القتال قد انتهى .. وستجعل منا لا شىء هنا .. من يدرى ما يمكن أن يحدث لأبيك أو للعائلة كلها لو عرفت الحكومة أنك سافرت إلى هناك فى أيام القتال .. صدقنى إنهم فى حاجة إليك هنا .

قال ايزاك فى إصرار :

– يجب أن أذهب ..

قالت زينب فى توسل :

– صدقنى يا ابنى .. أن القتال لن يستمر اكثر من ايام .. وأنا مؤمنة اننا سننتصر .. ولن يحتاج النصر إلى أن تكون من القتلى .. وبعد هذه الايام تستطيع أن تذهب إلى تل ابيب لو أردت .. وستذهب وأنت تعرف مكانك هناك وسكت إيزاك برهة طويلة ثم قال :

– ولكن كيف أكون نافعا لهم هنا ..

وابتسمت زينب ابتسامة واسعة .. لقد أقنعته .. وقالت فى فرحة :

– انت تعرف انى لا اتصل بأحد .. ولكنهم كلهم يعملون كما كانوا .. وأنا معى خمسمائة جنيه سأعطيها لك .. لا شك انهم فى حاجة إليها .

وابتسم إيزاك قائلا فى فرحة :

– إنه مبلغ كبير .

ومالت عليه زينب وقبلته قبلة سريعة قائلة :

– يجب أن أذهب .. مع السلامة يا خالد ..

وضحك خالد ضحكة ساخرة قائلا :

– مع السلامة يا ماما زينب .

وتركته وعادت إلى البيت .

ولم تكن زينب وزوجها شوكت يتبادلان الحديث عما يجرى فى فلسطين أو عن الحرب إلا فى كلمات عابرة .. ربما كان كل منهما يراعى شعور الآخر .. وكانت زينب تتعمد أن تشغل وقت شوكت بأعمال الأرض والخيل وتصب كل أحاديثها عن الأرض والخيل .. وفى كل لحظة فراغ تحمل إليه ابنتهما هاجر كأنها تسلطها عليه .. وكانت زينب لا تريد أن تنسى أن مدحت ابن شوكت الكبير ضابط فى الجيش .. وهو ضابط فى الخيالة.. والخيالة أيامها كان السلاح المخصص لأولاد الذوات.. والخيالة لا تشترك فى القتال .. ورغم ذلك فلا يمكن أن ينسى الأب أن ابنه ضابط .. ولم ينس شوكت .. وفى جلسة هادئة بعد العشاء قال شوكت وعيناه منطلقتان الى بعيد كأنه يبحث عن المجهول :

سمعت أن بعض الضباط يشتركون فى القتال تطوعا .. أى

دون أن تكون فرقهم مكلفة بالقتال .

ولم ترد زينب وتشاغلت بتقليب صفحات مجلة بين يديها .. وعاد شوكت يقول :

– أخشى أن ينضم ابنى مدحت إلى المتطوعين .

ورفعت زينب رأسها فى حدة كأنها تحتج وتعترض وقالت :

– لا يمكن .. إن مدحت هادىء وعاقل .. ولا يمكن أن يلقى بنفسه فى حرب لا لزوم لها .

وقال شوكت كأنه يدافع عن ابنه :

– إنه ضابط .. عسكرى .. وقد لا يهون عليه أن يترك زملاءه يحاربون وهو لا يحارب معهم ..

وقالت زينب كأنها تريد أن تنهى هذا الحديث .

– إنه يؤدى واجبه هنا فى مصر .

وسرح شوكت صامتا برهة ثم قال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

– تصورى لو أن ابنى تطوع للقتال وابنك تطوع للقتال مع اليهود .

وقاطعته زينب فى حدة

– ابنى لن يشترك فى القتال مع اليهود .. إنى متأكدة .. لا تنس أنه مصرى .. ثم لا تنس أنه مسلم ..

وقال شوكت ساخرا :

– إنه مصرى .. هذا صحيح .. أما أنه مسلم فلا أعتقد أن هذا صحيح .

وارتفع صوت زينب كأنها تهم بالصراخ :

– شوكت .. لماذا تثير هذا الكلام الآن .. إن ما تقوله عن ابنى يمكن أن تقوله عنى .

وقال شوكت وهو لا يزال هادئا هذا الهدوء الساخر :

– لا .. إن الإسلام غير من وضعك .. من واقعك .. أصبحت زوجة مسلم .. ثم إنك أنت التى اخترت لنفسك الإسلام .. أما ابنك فالإسلام لم يقدم له شيئا ولم يكن هو الذى اختاره لنفسه .

وقالت زينب فى استجداء كأنها تهم بالبكاء :

– شوكت .. من أجل خاطرى دعك من هذا الكلام .. واطمئن.. لا ابنى ولا ابنك سيقاتل أحدهما الآخر .

وقال شوكت من خلال نوبة سعال بدأت تنتابه :

– على كل حال إنى أشفق على اليهود .. الجيوش العربية ستقضى عليهم .. وهم السبب .

ورفعت زينب عينيها إليه فى تحد وقالت :

– لابد أنهم حسبوا حساب كل شىء .

وقال شوكت ونوبة السعال تشتد به :

– لا تكونى مغرورة بأهلك ..

– انظر ماذا فعل بك كلام الحرب .. إن السعال لا يرحمك وأنت لا ترحم نفسك .. سأعد لك الدواء .

وتركته وهى تضرب الأرض بقدميها فى عصبية ..

●●●

وانتهى القتال دون أن ينعكس منه شىء على المجتمع

اليهودى .. لقد عاشوا أيامها فى قلق .. وقيل أن الاخوان المسلمين سيهجمون على حارة اليهود .. ولم يحدث .. وقيل أن طلبة الجامعة قرروا القبض على الطلبة اليهود واحتجازهم كرهائن انتقاما من إسرائيل .. ولم يحدث .

وبدأ كل شيء يعود كما كان .. والمجتمع الارستقراطى اليهودى يعيش حياة نادى الجزيرة ويلتف أفراد من عائلة توريل وباروخ وقطاوى وعدس حول الملك فاروق فى نادى السيارات يلعبون معه القمار ويخسرون من أموالهم له .

وكانت قد مضت شهور دون أن يعود شوكت إلى الحديث عن الحرب .. وكان قد رقد مريضا .. ومن خلال مرضه كان يرفع عينيه أحيانا إلى زينب ويبتسم ابتسامة قد تكون ساخرة أحيانا وقد تكون ابتسامة خبيثة أحيانا كأنه يخفى فى صدره كلاما لا يريد أن يقوله .. إلى أن قال يوما ..

– وجدت إسرائيل .. ولن تبقى .. ستستمرالحرب .. ولن يكون هناك سلام بين اليهود والمسلمين إلا داخل هذا البيت .. بينى وبينك ..

وقالت زينب وهى تبتسم له فى مرضه كأنها تعطيه رشوة حتى يسكت :

– أنا لست يهودية ولست مسلمة .. أنا زوجة شوكت ذو القفار .. أنت دينى فارحم دينى .. أرحم نفسك حتى تشفى لى .

وكل شيء هادىء فى البيت وفى البلد ..

ولكن ..

بدأت الهجرة ..

لقد قامت إسرائيل وأصبحت تشد إليها يهود مصر .. والذين يهاجرون هم فقراء اليهود .. يهاجرون بلا ضغط وبلا سبب إلا أنهم فقراء يجرون وراء الأحلام التى تطلقها عليهم إسرائيل .. يسافرون إلى قبرص أو إلى باريس وهناك تتلقاهم مكاتب إسرائيل وترحلهم إلى تل أبيب .. أما أغنياء اليهود فلا يهاجرون وإذا هاجروا فلا يهاجرون إلى إسرائيل بل إلى اوروبا أو أمريكا .. وزينب تصلها أخبار الذين هاجروا فتسخط عليهم .. إنهم أغبياء .. إنهم هنا كأفراد ومجتمع يستطيعون أن يكونوا أغنياء أما فى إسرائيل فلا يستطيعون أن يكونوا إلا مقاتلين .. ولذلك ذهلت عندما علمت من صديقتها استر أن أولاد ابراهيم سرور قد هاجروا وهاجروا إلى إسرائيل .

وابراهيم سرور اسمه ابراهام ولكنه عاش فى مصر على أنه مسلم .. وكانت زوجته سارينا يهودية فرنسية وعرف معها على أنه مسلم متزوج يهودية .. ولم يكن أحد يعرف أنه يهودى إلا أفراد عائلته وأفراد قلائل من المجتمع الإسرائيلى .

واستطاع ابراهام أن يصل إلى أن أصبح من كبار ضباط المخابرات المصرية وكان لفترة طويلة يعتبر مسئولا عن حراسة الملك فاروق بل وصل إلى أنه أصبح صديقا شخصيا للملك .

كانت لابراهام قوة نفوذ كبيرة فى مصر .. ورغم ذلك هاجر أولاده إلى إسرائيل .. ولم يهاجر مع أولاده إنما اضطر أن يستقيل من مركزه رغم أن هجرة أبنائه لم تعرف رسميا ..

وبقى فى مصر يعمل فى الأعمال الحرة حتى بعد أن قامت الثورة .. وحتى عام ٥٦ عندما طردت زوجته من مصر عقب الاعتداء الثلاثى لأنها فرنسية فهاجر معها .. هاجر إلى إسرائيل .

وتذكرت زينب كل هذا وهى تعيش ماضيها .. وتذكرت أن روجينا ابنة ابراهيم سرور كانت مكلفة باستقبال الوفد المصرى فى فندق هيلتون بالقدس عندما ذهب إلى هناك الرئيس السادات .. وقد فرحت عندما قرأت الخبر .. فرحت لأن يوما ما سيعيش اليهود فى مصر وإسرائيل معا .

ولكن أيامها .. أيام أن هاجر أبناء ابراهيم سرور إلى اسرائيل لم تفرح .. خافت أيامها على أن يهاجر ابنها ايزاك .. أن أولاد ابراهيم سرور يهود مسلمون أو على الأقل كانوا يعرفون بأنهم مسلمون .. ورغم ذلك هاجروا .. وابنها يهودى مسلم أيضا ولن يصده إسلامه عن الهجرة .

وكانت هذه هى المشكلة الأولى التى تواجهها زينب .. هجرة ابنها .. ورغم أنها كانت قد وعدته بأن توافق على هجرته بعد انتهاء الحرب .. إنما الواقع أنها كانت تخدعه .. إنها لا تريده أن يهاجر .. إنها مؤمنة أن ليس له مستقبل فى إسرائيل .. إن مستقبله هنا .. أن بين يديه كل شىء .. وكل ما يملكه شوكت بك من مركز وثراء وأرض يمكن أن يستغله بعد أن تفتح له الطريق لاستغلاله .. وقد استطاعت فعلا أن تقنع ابنها بالعدول عن الهجرة إلى إسرائيل .. ولكنها ليست مطمئنة .. إن الأحوال

فى مصر تتطور والأجواء تتغير بحيث لم تعد تستطيع أن تطمئن إلى المستقبل .

وأكثر ما كان يثير قلق زينب هو مستقبل ابنتها ياسمين .

إنها مسلمة ..

ولكنها يهودية مسلمة ..

واليهودى فى كل مكان يجب أن يعيش مستندا إلى قوة تحميه .. وهى تعيش اليوم مستندة على قوة شوكت بك .. مركزه ونفوذه وثرائه .. ويجب أن تبحث لياسمين عن قوة أخرى تسندها .

يجب أن تبحث لها عن زوج ..

أن ياسمين لا تزال فى الخامسة عشرة من عمرها .. لا يهم.. إن زينب أصبحت تخشى سرعة الأحداث تخشى كل غد .

وهى منذ بدأت تتردد على النادى وهى تنقل عينيها بين الشبان لتختار من يكون منهم زوجا لابنتها .. إن النادى هو سوق الرجال .. ولكن الشبان لا يصلحون لياسمين .. إنها تريد أن تزوجها بسرعة ولا تستطيع أن تنتظر حتى يكبر هؤلاء الشبان ويصبحوا صالحين للزواج .. يجب أن تختار لها رجلا ناضجا .. وليس أمامها أسهل من عزيز راضى .. ولكنه قد تعدى الثلاثين .. إن عمره ضعف عمر ياسمين وربما أكثر .. لا يهم .. إننا نبيع ونشترى وكل شىء بثمنه .. ثم أنه لا يعمل شيئا .. إنه مجرد ابن من أبناء أصحاب الأرض .. ابن خليل باشا راضى .. ومعروف أنه لم يتم تعليمه ولا يزال يسافر إلى

فرنسا بحجة الالتحاق بالجامعة هناك ولو أنه لا يسافر إلا فى شهور الصيف .. فى عطلة الجامعات .. لا يهم .

إن الزواج ليس وظيفة تشترط نسبة التعليم فيمن يتقدم إليها .. ثم أنه ضعيف أمام النساء .. معروف أنه بصباص .. وهو ضعيف أمام الخمر .. لا يهم .. إن الزواج علاج الضعفاء .. ولكن الذى تعرفه زينب أن ياسمين لم تلفت نظر عزيز أبدا .. هى التى لفتت نظره .. هى الأم .

وقد كان لا يكاد يراها جالسة فى النادى حول حمام السباحة حتى يتقدم إليها ويفرض نفسه للجلوس بجانبها .. وهو الذى قدم نفسه إليها .. وكان يتجرأ فى كلماته .. يغازلها بصراحة .. ويعرض عليها بصراحة .. وكانت فى الأول تهرب منه دون أن تصده .. ولكنها أصبحت لا تهرب منه وإنما تسمح له بالجلوس على مائدتها وهى واثقة أنها تستطيع دائما أن تحدد له أين يكون منها .. ولم تكن تذهب إلى النادى كل يوم .. يوم أو يومين فى الأسبوع .. ولكنها كانت دائما تجد عزيز كأنه ينتظرها .. كيف تفكر فى أن تزوج ابنتها من رجل يريدها هى .. لا يهم .. المهم ليس ما يريده الرجل ولكن ماذا تعطيه .. وهى ستعطيه ابنتها ياسمين .

ومع الأيام بدأ عزيز يكتفى بالجلوس إلى مائدة زينب .. دون أن تتركه يفقد الأمل .. وكانت ياسمين تمر عليهما لا تكاد تجلس معهما حتى تأمرها أمها بأن تذهب وتبقى مع صديقاتها .. إلى أن قال لها عزيزة مرة :

– لماذا لا تدعين ياسمين تجلس معنا ؟..

وقالت زينب وهى تبتسم ابتسامة كبيرة :

– لأنى أخاف عليها ..

وقال عزيز فى دهشة :

– ممن ؟..

وقالت زينب ضاحكة :

– منك .. إنى أستطيع أن أحمى نفسى منك ولكن من يحمى لى ياسمين .. وأنت لا ترحم ..

وقال عزيز وقد نفخته زينب بالغرور :

– ولكن ياسمين لا تزال صغيرة ..

وقالت زينب :

– ليس بالنسبة لك .. إنى أعرفك .. بالعكس ربما طمعت فيها أكثر مما تطمع فى .. إنى أحميها للزواج .. ولهذا أخاف منك

وقال عزيز ضاحكا :

– وإذا طلبتها للزواج ..

وقالت وهى تصبغ لهجتها بالجدية :

– إن الزواج أمان كل بنت .. حتى لو تزوجتك ..

قال عزيز وكأنه بدأ يكتشف كشفا جديدا :

وأنت ..

قالت ضاحكة :

– مالى أنا .. أنا أمها ..

ولم تنقض أسابيع حتى تقدم عزيز فعلا ليتزوج ياسمين .. ولم يستمر وقع المفاجأة على ياسمين سوى لحظات انطلقت

الفرحة بعدها تهز كل كيانها .. إنها منذ نمت أنوثتها وهى تريد الزواج .. فقد أحست منذ صباها أنها لن تكون لها شخصية فى هذا المجتمع المغرور الذى تعيشه إلا إذا تزوجت وأصبحت تقدم نفسها لهذا المجتمع على أنها زوجة فلان .. إنها لا تستطيع أن تقدم نفسها باسم أبيها .. زكى راؤول .. لا تريد أن تعلن أنها كانت يهودية حتى لو عرف الناس أنها كانت يهودية ، ولا تستطيع أن تقدم أباها باسم أبوبكر عبدالله .. من هو أبو بكر عبد الله .

إن أباها نفسه لا يتعامل بين الناس باسم أبو بكر عبد الله حتى بعد أن أسلم .. إنها تحس أنها شخصية ناقصة .. شخصية بلا أصل .. إن كل الناس تعرف أن اسمها ياسمين .. ولكن .. ياسمين من .. لا أحد يعرف .. لا أحد يكمل اسمها .. وكانت تسكت على التزوير عندما يعتقد البعض أنها ابنة شوكت ذو الفقار زوج أمها .. وخيالها يحلم ويتمنى لها أن يكون اسمها الكامل ياسمين ذو الفقار .. كأمها .. لا أحد يعرف عن أمها شيئا إلا أنها حرم شوكت ذو الفقار .. مدام ذو الفقار.. زينب ذو الفقار .. وربما لهذا أحست بالغيرة المرة منذ ولدت أمها ابنتها هاجر ..

إن هاجر ولدت وهى تحمل اسمها كاملا.. هاجر ذو الفقار.. وولدت وسط كيان عائلى كامل يحفظ لها شخصية كاملة .. أبوها وأمها وأعمامها وعماتها وأولاد أعمامها وأولاد عماتها .. وكل شىء فى المجتمع .. أما هى .. غريبة .. كأنها هاجرت من عالم ولدت فيه إلى عالم لا تعرفه ولا يعرفها . أبوها لا يراها..

وأخوها متباعد عنها .. وأمها عودتها على مقاطعة كل أهلها وأهل أبيها لأنهم يهود .. حتى خالتها اليزا التى عاشت معها سنوات الطفولة لا تراها أمها ولا تسمح لها حتى ولا بالسؤال عنها .. هكذا أمها .. وهكذا تعيش حياة أمها ..

وقال عزيز ضاحكا

- أى يمكن أن أعيش مع البنت وأمها ..

وقالت وهى لا تزال تضحك :

- حاول ..

والآن أصبحت ياسمين هى حرم عزيز بك راضى .. مدام راضى .. ياسمين راضى .. استكملت شخصيتها الاجتماعية .

ولم تكن ياسمين تعرف عن عزيز شيئا إلا نظرات عابرة عندما كانت تراه فى النادى من بعيد .. وكلمات عابرة كانت تسمعها منه عندما تلتقى به وهو جالس مع أمها .. ولم تحاول أن تعرف عنه شيئا بعد أن تقدم ليتزوجها .. يكفى أن أمها وافقت على الزواج ولعلها هى التى اختارته ودفعته إلى هذا الزواج .. وأمها شاطرة .. لا يمكن أن يخيب اختيارها .. ولا شك أنها اختارته لأنه فى مستوى شوكت بك .. وياسمين تعجب بشوكت بك وتحسد أمها عليه .

ولكن ..

هل يطلبها عزيز من أبيها ؟!

إنه يعرف كل شىء .. يعرف أنها يهودية وأسلمت مع أمها يوم تزوجت شوكت بك .. ويعرف أن أباها أسلم أيضا .. إنه يجب أن يعرف كل شىء قبل الزواج .. وأن يعرف أيضا أن

هناك قطيعة بينها هى وأمها مع أبيها .. وهى قطيعة تكفى لأن يتجاهل عزيز هذا الأب فى إجراءات الزواج ..

شوكت بك سيكون الأب وسيكون وكيل العروس ياسمين عند توقيع العقد .. ولكن زينب تصر على أن يتقدم عزيز إلى أب ياسمين .. إنها لا تريده أن يمسك عليها نقطة ضعف يعذبها بها طول حياتها .. يجب أن يتزوجها على أنها كانت يهودية .. وعلى أن أباها يهودى .. حتى يعيش معها وهو راض ومعترف بأصلها ..

واتصلت زينب بزوجها السابق زكى وقالت له فى التليفون كأنها تحاول أن تغريه .

– أنا لوسى .

لم تقل له أنا زينب ..

وعرضت عليه الموضوع .. أن عزيز بك راضى يريد أن يقابله ليطلب منه يد ياسمين .. وصرخ زكى فى وجهها .. لم تعد له ابنة .. إنه يتبرأ منها .. ولا يهمه إن تزوجت أو باعت نفسها فى الشارع .. ولكن زينب تلح .. أنت تعرف عزيز راضى ابن راضى باشا .. أو على الأقل تسمع عنه .. إنه صفقة رابحة لابنتك .. إنه مستقبل لم نكن نحلم به .. ولا أريده أن يتزوجها ونحن ننكر أنها ابنتك .. إنها زيجة تشرفك كما تشرفنا .

وزينب تلح .. وسلطت صديقتها استر لتلح على زكى هى الأخرى .. وزكى بدأ بعصبيته اليهودية يريد أن تتزوج ابنته

من يهودى .. لا يهم أنها أسلمت .. إنه إسلام فرضته السوق التجارية وتستطيع أن تبيعه وقتما تشاء .. ولكن عصبيته بدأت تخف كما خفت يوم قرر طلاق زوجته لوسى لتتزوج شوكت .. ومن يدرى .. ربما استطاع أن يستفيد من عزيز .

وعزيز لا يهمه شىء .. كل ما يهمه أنه سيتزوج فتاة جميلة صغيرة .. ستكون له فى فراشه .. ويهمه أيضا أنه معجب بأمها .

وذهب ببساطة للقاء أب ياسمين .

ثم قبل ببساطة أن يوقع العقد فى بيت شوكت فى اجتماع عائلى صغير لم يحضره أبو ياسمين .. حضره أخوها خالد ووقف صامتا بعيدا .. ولم يحضره أحد من عائلة شوكت .. كانت زينب قد قررت كل ذلك وقررت أن يسافر العروسان بعد العقد إلى أوروبا وكانت حجتها أن شوكت مريض .. وهو مريض فعلا .. وياسمين قبلت كل شىء حتى حرمانها من طرحة العروس ..

لقد عقدت زواجها وهى فى ثوب السفر .. وفى صدرها مرارة تقاومها .. ربما كانت أمها تحتفظ بالحفل الكبير لزواج أختها هاجر .. واتسعت عيناها فى دهشة وهم يكتبون اسمها فى العقد .. ياسمين أبوبكر عبدالله .. إنها لم تعرف نفسها أبدا بهذا الاسم .

وسافرت ياسمين وزوجها لقضاء شهر العسل ..

واطمأنت زينب إلى أنها وضعت ابنتها اليهودية فى حماية رجل مسلم .

وبعد أيام توفى شوكت ذو الفقار .

وزينب تبكى .. تبكى فى هدوء .. لقد كان شوكت صفقة رابحة فى حياتها .. لعلها لم تحبه ولكنه أعطاها الكثير .. وكان كريما إلى درجة أن اختار أن يموت قبل الثورة وقبل تحديد الملكية حتى لا يحرمها من الميراث .. وقد ترك لها الكثير ..

وزينب الآن حرة وغنية ..

٦

والأيام تمر..

وكانت زينب قد أصبحت تملك هى وابنتها هاجر أرض المنصورية .. خمسة وثمانون فدانا كلها حدائق . ولم تجادل زينب بقية الورثة وهم يوزعون الإرث .. ربما كانت هي وابنتها تستحقان أكثر من أرض المنصورية . لا يهم .. لو لم تكن قد أعلنت إسلامها لما كان لها حق الإرث من زوجها المسلم .. بل ربما كان أولاد شوكت قد طالبوا بأن يأخذوا منها ابنتها هاجر حتى لا يتركوا أختهم تكبر بين أحضان أم يهودية ..

وكان يمكن أن تحكم لهم المحاكم بما يريدون .. هكذا الشرع.. ولكنها تعلم أن أولاد شوكت ليسوا من هذا النوع .. كان يمكن أن يصونوها ويصونوا كرامة أبيهم حتى لو لم تكن مسلمة .. إنهم صور مهذبة من المجتمع المصرى الأرستقراطى.. وربما خصوها هى وابنتها بأرض المنصورية لأنهم أرادوا أن تحتفظ بالأرض التى عاشت فيها مع أبيهم من قبل أن تتزوجه .. أو ربما كرهوا هذه الأرض لأن أباهم عاش فيها مع امرأة غريبة فتركوها لها قرفا منها . رغم أن أرض

المنصـــورية تعــتبــر أغلى أرض فى كل ممتلكاتهم .. أرض حدائق .. الفدان في المنصورية يساوى فدانين فى أى أرض أخرى ..

وفى فعلا تحب هذه الأرض .. إن كل شبر فيها تشعر به كأنه ابتسامة تهنئها على ذكائها ونجاحها فى الوصول إلى ما وصلت إليه .. وهذا القصر الريفى الصغير الذى رسمت بين حجراته كل خطتها التى أسرت بها شوكت .. إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه ..

أما الخيول فقد باعتها فى حياة شوكت أثناء مرضه .. استطاعت أن تقنعه ببيعها إلى أن يشفى ويقتنى غيرها فإن خيوله لا تستطيع أن تحتمل مرضه .. إن الحصان حيوان عاطفى يضحك مع صاحبه ويبكى معه ، ويصح معه ويمرض معه ..

وابتسم شوكت ابتسامته المريضة ووافق على أن تبيع زينب الخيول .. باعتها بأكثر من أربعة آلاف جنيه أيام كان الجنيه يساوى عشرة .. واحتفظت بالنقود معها إلى أن يشفى شوكت .. ولم يشف شوكت .. مات .. وربما لو كانت تركت الخيول لاستولى عليها أولاد شوكت . إنهم كلهم من هواة الخيل . الحمد لله . إنها دائما تسبق القدر .. وهذا الاسطبل الكبير ستهدمه .. إنها رغم كل ما أعطته للخيل فى حياة شوكت فإنها ليست من هواة الخيل وستقيم مكان الاسطبل مشتلا للزهور والورد تبيعها فى دكان تفتحه لحسابها . إن الزهور تدر أرباحا أكثر مما تدر الخيل .. ولو أنها ليست فى حاجة لأى ربح ..

إن شوكت ترك لها بجانب الأرض كمية من المجوهرات ورصيدا فى البنوك .



ولكن زينب تحس بعد وفاة شوكت أن شخصيتها تهتز .. تحس أنها لم تعد زينب وأنها عادت وأصبحت لوسى .. عادت يهودية .. ولم يعد الناس يرونها كمسلمة .. فلم يكن لها مظهر

من مظاهر إسلامها إلا أنها زوجة شوكت .. وليس هناك مبرر لإسلامها إلا أنها زوجة مسلم .. وقد ضاع المظهر وضاع المبرر فلم تعد مسلمة .. إنها هى نفسها أصبحت فى داخلها تحس أنها تبتعد عن الإسلام .. لقد كان كل ما تبذله حتى تقنع نفسها وتقنع الناس بأنها مسلمة كانت تبذله للاحتفاظ بزوجها .. وقد ضاع الزوج .. فلمن تعطى إسلامها .. إنها تحس بالثقل وهى تسمع القارىء الذى لا يزال يتردد على البيت كل يوم ويتلو القرآن .. وتحس بالثقل وهى تتحايل على نفسها لتقوم وتصلى ركعتين تأكيدا لإسلامها كما كانت تفعل أيام شوكت .. تحس بالثقل وهى تقرر أن تخرج لزيارة ضريح الحسين .

ولكنها تريد أن تبقى مسلمة .. تريد أن تبقى زينب .. إن مستقبلها كله ومستقبل ابنتها هاجر وابنتها ياسمين يفرض عليها أن تبقى مسلمة .. إنها لن تستطيع أن تتعامل مع المجتمع إذا عادت وأعلنت يهوديتها .. سيحتقرها المسلمون ويسخر منها اليهود .

وتحملت زينب الثقل الذى تعانيه وبدأت تغالى فى تأكيد إسلامها تتظاهر بكل المظاهر التى يفرضها عليها الإسلام . وتذهب فى كل يوم جمعة إلى مقبرة زوجها وتدعو القراء لتلاوة القرآن الكريم طوال النهار سواء صحبها أحد من عائلة المرحوم زوجها أو ذهبت وحدها مع ابنتها هاجر .. وتحاول أن تقنع ياسمين بأن تصحبها .. وياسمين تستجيب مرة وترفض مرات

وفى الوقت نفسه تعمدت زينب أن تغالى فى ابتعادها عن المجتمع اليهودى .. إن كثيرات من سيدات هذا المجتمع ساهمن فى تعزيتها وحاولن أن يربطن التعزية برباط الصداقة .. بل إن بعض الرجال اليهود أيضا حاولوا أن يواسوها .. رجال من الطبقة الارستقراطية اليهودية وأيضا رجال من الذين كانوا من جيرانها فى حى الظاهر أيام الفقر . كلهم يعلمون أنها ورثت الكثير وأصبحت امرأة غنية ولا شك أن صداقتهم يمكن أن تحقق مشروعات رابحة ..

ولكن زينب كانت ترفض هذه الصداقة .. وتستقبل المعزين اليهود ببرود وتخيب أملهم فيها . إنها مسلمة وتريد أن تعيش المجتمع الإسلامى الراقى الارستقراطى ..

ولكن هذا المجتمع أصبح يتعالى عليها أكثر . إن عائلة زوجها شوكت قاطعتها بعد أن تمت تصفية التركة .. كأنه لم يعد لها مبرر للوجود بينهم ، قاطعوا حتى أختهم من أبيهم .. ابنتها هاجر لا أحد يسأل عنها أو يعترف بها كأخت .. وبقية العائلات المسلمة يتجاهلونها وتحس كأنهم يحقدون عليها .. لقد أخذت أموال واحد منهم .. ورثت عن شوكت .. ويتهامسون .. إنها يهودية ..

وبدأت زينب تحس أنها فى حاجة إلى رجل .. ليس مجرد رجل .. إنها فى حاجة إلى قوة تحميها .. إن اليهود يعيشون دائما فى حماية قوة .. هل تبحث عن قوة تتزوجها كما تزوجت شوكت بك .. لا .. إنها لم تعد فى حاجة إلى الزواج .. إن

ما يمكن أن يعطيه الزواج قد أخذته ..

وأصبحت الآن تملك من الأرض والمجوهرات والمال ما يفرض عليها أن تحميه من الزواج .. إن الزواج الآن قد يأخذ منها ولا يعطيها .. ولكنها في حاجة إلى رجل .. لا إلى زوج .. والرجل الوحيد في عائلتها الضيقة الذي كان يمكن أن يمثل قوة هو عزيز راضي زوج ابنتها ياسمين .. ولكن عزيز لا يمكن أن يكون شيئا .. إنه لا شيء سوى أنه سكير لا يزال يحاول أن يتذوقها كطبق مزة جانب الكاس حتى بعد أن تزوج ياسمين .. إن ابنتها ياسمين أصبحت هي الأخرى تعتبره لا شيء .. وكلتاهما .. هي وابنتها .. يضمانه بين أصابعهما ويلعبان به .. هي تعامل غباءه بكلمات وياسمين تستعمله لتنجب منه حتى تضمن الإرث الكبير لها ولأولادها .. وقد أنجبت منه في أربع سنوات ولدين .. سامي وفريد .. ولم يحاول عزيز أن يسأل ياسمين لماذا اختارت هذه الأسماء .. إنه لا يهمه شيء ولا يحس بشيء .. وهي لا تستطيع أن تنسى أنها يهودية .. تحس أنها لا تستطيع أن تضحي بنفسها إلى حد أن تسمي أولادها محمد وأحمد .

وقد حاولت زينب أن تعتمد على ابنها خالد ..

ولكن « خالد » لا يريد أبدا أن يعيش بشخصية جديدة لا يريد أن يستسلم ليكون «خالد» .. إنه يصر على أنه ايزاك..

وهو لا يزال يعيش مع أبيه رغم أنها بعد أن مات زوجها ألحت عليه كثيرا ليقيم معها ويصبح رجل البيت .. سيد

البيت .. يحمل مسئولية أرض المنصورية .. ويبدأ في مشروع مشتل الزهور .. أبدا .. إنه مصمم على أن يظل محتفظا بشخصيته بعيدا عنها .. وهي تعذره .. إن الإنسان لا يستطيع أن يغير ما بنفسه مرة واحدة .. إنها هي نفسها لا تزال يهودية رغم كل ما تبذله حتى تعيش مسلمة ..

إن الهجرة من دين إلى دين كالهجرة من بلد إلى بلد .. فالروسي الذي يهاجر إلى أمريكا يبقى روسيا في شخصيته وفي تقاليده مهما عاش في أمريكا . ولكن أولاده الذين يولدون في المجتمع الأمريكي يكبرون وهم أقل تأثرا بالشخصية الروسية من أبيهم وأكثر اندماجا في الشخصية الأمريكية .. وهي قد هاجرت مع أولادها من اليهودية إلى الإسلام فلا شك أنهم رغم الهجرة سيبقون داخل الشخصية اليهودية التي ولدوا بها ولكن ابنتها هاجر ستصبح أكثر ارتباطا بالإسلام لأنها ولدت مسلمة ولم تعش المجتمع اليهودي .. من يدري ..

كان كل ما يهمها أن يبقى خالد بجانبها .. لقد أصبح الرجل الوحيد الذي تملكه حتى لو كان الرجل الوحيد الذي يأخذ منها ولا يعطي .

وقد بدأ بعد وفاة زوجها شوكت يأخذ الكثير .. إنه لا يكف عن مد يده إليها وهو يقول ضاحكا .. إنه دين يا ماما .. سأرده بعد أن أجمع المليون الأول .. ولم تكن تعلم ماذا يفعل بما تعطيه له . إنه ليس مسرفا .. ولا يتردد على علب

الليل ولا يشرب الخمر ولا حتى السجائر .. ولا تعرف أنه على علاقة بامرأة أو بفتاة يحبها .. لعله يتبرع بما يأخذه لجمعية « قطرة اللبن » التى تجمع التبرعات لرعاية أولاد اليهود .. ولو أنها تعلم أنها تبرعات ترسل إلى إسرائيل .. أو ربما كان متصلا بتنظيمات إسرائيلية أخرى ..

وقد بدأ يطالب بأموال أكثر بحجة أنه يسعى للحصول على توكيل إحدى الشركات .. أو لأنه سيدخل فى مشروع تجارى.. أو .. أو ...

وكان يحمل إليها أوراقا لا تفهم منها شيئا حتى يثبت لها أنه صادق فى كلامه .. ولم تكن تصدقه وكل ما كانت تستطيعه هو أن تعطيه أقل مما يطلبه .. إنها حريصة على أموالها .. هذه الأموال هى كل ذخيرتها التى تعتمد عليها هى وابنتها هاجر .. فإذا طلب مائة تعطيه عشرين .. وكان يحتج ويصرخ ويتهمها بأنها بخيلة وأنها تكرهه ولكنه كان دائما يعود إليها ليطلب من جديد .. ويأخذ الكثير .. وهى تعرف أن ما يأخذه يضعه فى خدمة الحركات الصهيونية .. لا يهم ، إنه يهودى ولا تستطيع أن تلومه .. المهم ألا يذهب إلى هناك .. إلى إسرائيل .. إن كثيرين من شبان اليهود يهاجرون .. لم يبق فى مصر من اليهود إلا العقلاء والأغنياء .. ربما اقتنع ابنها خالد بأنه غنى من كثرة ما تعطيه حتى لو لم يكن عاقلا .. لعل إحساسه بالغنى يربطه بها وبمصر ..

ولكن ..

كل شىء يتغير فى مصر ..

انطلقت ثورة الضباط ..

وكل من له بلد آخر بدأ يهرب من مصر .. واليهود لهم كل بلاد العالم .. وأصبح لهم إسرائيل .. وقد بدأوا يهاجرون .. الأغنياء إلى بلاد العالم والفقراء إلى إسرائيل .. وزينب حائرة .. وحيرتها تأخذها إلى الخوف .. لا تستطيع أن ترى ما يمكن أن يفرضه القدر .. لا تستطيع أن تقدر ما تختاره .. هل تبقى زينب أم تعود وتصبح لوسى وتهرب هى الأخرى .. والأشد خوفا منها ابنتها ياسمين .. إنها لا تملك كل قوة أمها .. ولا كل جرأتها .. ولا كل ذكائها ..

وقد تركت بيتها وأخذت ولديها وأقامت فى بيت أمها .. والاثنتان تقضيان الليل والنهار بجانب الراديو تستمعان إلى محطة إسرائيل .. إن ما تقوله إسرائيل هو ما يمكن أن يحدد مصير اليهود فى مصر ..

ولكن إذاعة إسرائيل متفائلة بالثورة فى مصر .. إنها تبشر بالصلح والسلام على يد هؤلاء الضباط .. وإذاعة صوت أمريكا أيضا متفائلة .. إن أمريكا تؤمن بأنها ثورة عاقلة .. وتتصل زينب بصديقتها اليهودية استر .. إن استر لن تترك مصر ولا زوجها .. وتتصل بصديقتها المسلمة نادية .. إن نادية تضحك وتكاد تزغرد .. ثم إن الثورة لم تتخذ أى إجراء ضد اليهود رغم أنه قد مرت أسابيع .. إنها لم تطرد اليهود ولكن اليهود هم الذين يطردون أنفسهم .

وبدأت زينب تهدأ وتستعيد كل ثقتها بذكائها .. إنها ستبقى زينب .. ستبقى هنا .. فى مصر .. سواء كانت يهودية أم مسلمة فكل شخصيتها هى مصر .. كيف تترك أرض المنصورية .. وأين تأخذ ابنتها هاجر التى تحمل اسم عائلة لا يساوى شيئا خارج مصر .. اسم شوكت ذو الفقار .. وكيف تبتعد عن حلاوة ذكرياتها وانتصارات ذكائها .. ولن يخذلها ذكاؤها أبدا ..

ولكن التى لا تستطيع أن تتحرر من الخوف هى ابنتها ياسمين .. وأمها تحاول أن تمدها بالهدوء .. لا تخافى .. إنك زوجة مسلم .. وأم مسلمين .. لا أحد يذكر ماذا كنت منذ أكثر من عشر سنوات .. كونى طبيعية .. ابتسمى .. إن ابتسامتنا ستكونان سلاحينا نحو أيام حلوة .. اعتمدى على أمك ..

إلى أن فوجئت زينب بابنها خالد .. تقصد ايزاك .. لقد جاء وجلس صامتا على غير عادته ، وأمه تبحلق فى وجهه كأنها تحاول أن تكتشفه .. ثم صرخت :

– لا تقل لى أنك قررت السفر ..

وقال خالد فى هدوء .

– هذا صحيح يا أمى ..

وعادت تصرخ ورموشها تهتز فوق عينيها فى ثورة :

– أنت مجنون كأبيك .. مجنون وضعيف .. هل تعلم ما سيحدث لك هناك .. إنهم يجمعون اليهود المصريين ويضعونهم فى صحراء النقب .. ويعيشون هناك فى ثكنات ..

ليس فى يدهم إلا سلاح يتدربون عليه فإذا ألقوا السلاح وضعوا فى أيديهم فأسا ليزرعوا بها الرمل .. لن تساوى هناك إلا فلاحا مجندا .. وهل سيسافر أبوك .. إنه سيكون خادما أنيقا .. انصحه بأن يتدرب على مسح البلاط وكنس السلالم قبل أن يذهب ..

وقال خالد وهو لا يزال هادئا :

– لن أذهب إلى هناك يا أمى ..

وقالت زينب ساخرة وهى لا تصدقه :

– إلى أين تذهب ..

وقال خالد :

– باريس ..

وقالت زينب وهى تحاول أن تستعيد هدوءها :

– يا ابنى إن المستقبل هنا أصبح أوسع .. إن أى ثورة تفتح مجالات لعمليات أسهل .. وسأعطيك توكيلا لتتصرف فى كل ما أملك .. أريد أن أفرح بك .. ولا تخف .. حتى لو اعتبروك يهوديا .. إنهم سيحاولون أن يثبتوا أنهم لا يعذبون اليهود ..

وقال خالد وهو يتكلم كأنه يفهم ما لا تفهمه أمه :

– يا أمى .. لا أحد يعرف ما سيحدث غدا .. إنى لن أسافر لأبقى ولكنى أسافر لأنتظر ما يمكن أن يحدث .. وبعدها قد أعود ..

وقاطعته زينب وكأنها تستعطفه :

– وتتركني وحدى ..

وقال خالد وهو يخفى عينيه عنها كأنه لا يريدها أن تكتشف كذبه :

– إنى معك دائما .. سأكتب لك عن كل خطوة من خطواتى وستكتبين لى بكل ما تريدين .. ويوم تريدينني أن أعود ساعود ..

وقالت زينب وهى لا تصدقه :

– إذا كنت ستعود فلماذا تذهب ..

وقال خالد وكأنه ضاق بكلامها :

– يا أمى كل الناس يذهبون .. ليس اليهود وحدهم .. كل رجال الأعمال .. الشخصيات المهمة حتى المسلمين منهم .. إن الذين يذهبون هم العقلاء .. إنهم يحصنون انفسهم ضد الأحداث .. وبالمناسبة .. اعتقد انه يجب أن يكون لك رصيد فى الخارج ..

وقالت زينب ساخرة :

– رصيد لى أم لك ..

ورد عليها خالد فى برود :

– لى ولك وللعائلة ..

واحتد النقاش بين زينب وخالد حول إصراره على تحويل مبلغ كبير إلى الخارج .. لعله يريد هذا المبلغ ليعيش به هو وأبوه فى إسرائيل .. لا يمكن .. ولكن زينب تعود وتضعف

أمام ابنها .. إنها يجب أن تحتفظ فعلا برصيد فى الخارج .. من يدرى ما يمكن أن يحدث لمصر .. ويجب أن تثق بابنها .. إن رجلها .. خالد .. إيزاك .. إنه حتى لو ذهب إلى إسرائيل فإنها تستطيع أن تجده إذا سافرت خارج مصر ..

واتفقت معه على أن تعطيه من أموالها ليكون لهم رصيد فى الخارج .. وعدته بمبلغ كبير .. عشرة آلاف جنيه .. وفرح خالد والفرحة تلمع فى كل تقاطيع وجهه .. وقام وقبل أمه شاكرا .. ثم التفت العائلة حول مائدة العشاء .. هى وابنها وابنتها .. وإذا بها تفاجأ بخالد يبدأ بتناول كأس من النبيذ قبل أن يبدأ فى تناول طعامه .. ثم يسكت فترة .. إنه يصلى .. إن زينب تعلم انه يصلى صلاة القيدوسن .. يشكر الله ويدعو لنفسه بالتوفيق والنجاح .. وهو يتلو صلاته فى سره حتى لا تعترض عليه أمه .. وقلبت أمه شفتيها قرفا وامتعاضا دون أن تتكلم .. ونظرت ياسمين إلى أخيها ثم رفعت هى الأخرى كأس النبيذ إلى شفتيها .. وأرخت جفنيها ثم غابت بينها وبين نفسها .. إنها تصلى هى الأخرى صلاة القيدوسن .. وهاجر الصغيرة تنظر إلى أخيها وإلى أختها وإلى أمها وهى لا تفهم شيئا .. إلى أن مد خالد يده إلى الطعام .. لقد انتهى من الصلاة .. وكان يجب أن يقول .. آمين .. لقد قالها لنفسه فى سره .. ولكن ياسمين قالتها علنا وانطلقت تردد بصوت مسموع .. آمين .. وزفرت زينب أنفاسها فى سخط وقرف .. لا أمل .. لقد ولدوا يهودا وسيموتون يهودا ..

وفى أيام كان خالد قد استطاع أن يهرب العشرة آلاف جنيه

إلى الخارج .. واستطاع أن يسافر .. سافر هو وأبوه وزوجة أبيه وأخوه الذى ولد من أبيه .. العائلة كلها سافرت .. لا يمكن أن تعود .. ثم جاءها خطاب من باريس .. إنه خطاب عادى ليس فيه جديد . مجرد الاطمئنان على الصحة والعافية .. وقد وقعه باسم خالد أبو بكر عبد الله .. لعله يحسب حساب الرقابة على البريد .. ثم جاءها خطاب ثان .. لا شيء أيضا ..

وفي الخطاب الثالث قال لها إنه قرر السفر إلى نيويورك بعد أن وجد عملا هناك .. وابتسمت ساخرة .. لعله يريد أن يباعد بينه وبينها حتى لا تفكر فى السفر إليه في باريس .. ومن يومها حتى النهاية لم يكتب لها .. لم تصلها منه كلمة واحدة .. واستسلمت .. إنه لا يستطيع أن يكتب لها أو تسمع صوته وهو فى إسرائيل .. وسرحت بخيالها لعله لم ينس أن يصلى صلاة « كل النذور » وهى الصلاة التى تعفى اليهودى من كل العهود والنذور التى قطعها على نفسه .. ويلجأ إليها اليهود الذين تظاهروا بالإسلام أو المسيحية ليعودوا كما كانوا .. يهودا .. وابتسمت زينب .. إنها واثقة أنه لم ينس إعفاء نفسه من كل النذور .

٧

وبعد سفر خالد لم يعد حول زينب إلا ابنتها ياسمين وابنتها هاجر ..

وياسمين رغم أنها تملك أنوثة أمها وذكاء أمها إلا أنها ليس لها شخصية أمها .. الشخصية الطموحة المغامرة التى تحدد الهدف وتصر عليه إلى أن تصل إليه .. ربما لأنها لم تعش أيام الفقر التى عاشتها أمها .. ربما لأن أمها عودتها أن تفكر لها .. هى التى نقلتها من الفقر إلى الغنى ومن حى الظاهر إلى حى الزمالك .. وهى التى جعلت منها مسلمة .. وهى التى قدمتها إلى مجتمع نادى الجزيرة .. وهى التى زوجتها من عزيز راضى .. لم تتعود أن تجد طريقها بنفسها أو أن تختار أهدافها .. وأفكارها كلها تميل إلى السخط .. ساخطة لأنها كانت يهودية وساخطة لأنها أصبحت مسلمة .. والسخط يدفعها إلى الشك فى كل ما حولها .. والشك يترك فيها إحساسا من الخوف .. إنها تخاف كل أيامها .

ومنذ قامت الثورة وياسمين تخاف كل الضباط .. إنها كلما التقت بضابط تحس أنها ستهم برفع ذراعيها كأنها تستسلم له وتتركه يفعل بها ما يريد .. ولم يكن لها أحد يمكن أن تطمئن

إليه إلا صديقتها خديجة .. كانت جارتها .. وبسرعة تآلفت معها وأصبحت كل منهما تعرف عن الأخرى كل شىء ..

وخديجة ليست فى جمال ياسمين .. إن لها هذا اللون من الجمال الفلاحى الأسمر .. وشخصيتها شخصية فلاحة قوية تحمل كل ما فى شخصية الرجل من قوة الاعتماد على النفس.. وهى فلاحة فعلا .. فلاحة غنية .. وأهلها لا يزالون فى القرية بجانب الأرض الواسعة ، وهى هنا مع زوجها وأولادها .. وربما كان مما جمع بين ياسمين وخديجة أن زوج خديجة أيضا شخصية ضائعة لا لون ولا طعم لها ويعيش فى أحضان أبيه المقاول المعروف كما يعيش عزيز زوج ياسمين فى أحضان أبيه الباشا .

وهدأت ياسمين بإحساسها.. إنها تعيش فى حماية صديقتها خديجة .. إنها لا تستطيع أن تكون كأمها وتبحث عن رجل تعيش فى حمايته .. خديجة أعفتها من البحث عن رجل ..

إلى أن وقعت عليها الصدمة ..

لقد فرضت الحراسة على حماها راضى باشا .. أخذوا منه كل شىء حتى ما كان قد سجله باسم أولاده .. وخصصوا لكل فرد من العائلة معاشا .. والمعاش الذى خصص لزوجها عزيز هو أربعون جنيها فى الشهر .. أربعون جنيها لا تكفى يومين لمصروف البيت والأولاد ولا تكفى لدفع مرتبات الخدم .. بلا لا تكفى يوما واحدا من أيام عزيز التى يقضيها مخمورا .

وكانت الصدمة أكبر على أمها زينب فقد كانت تعتبر زواج

ابنتها من عزيز صفقة من الصفقات التى نجحت فيها .. صفقة ضخمة .. وقد ضاعت الصفقة .



ولكن زينب لم يصبها الانهيار كما انهارت ياسمين .. واستطاعت أن تهدأ وتجمع ذكاءها ربما لأنها حمدت الله أن لا شىء حدث للصفقة الأخرى التى حققتها .. صفقة زواجها من شوكت .. والفضل له فقد مات قبل الثورة ووزعت أملاكه على ابنائه وورثته ولم يكن بينها ما ينطبق عليه قانون الإصلاح الزراعى .. إنها هى وابنتها هاجر لا تملكان سوى

الخمسة والثمانين فدانا من أرض المنصورية .. ثم إن شوكت لم يكن رجل سياسة كراضى باشا والد عزيز .

وبدأت تفكر مع ابنتها فى تدبير حياتهما .. وقد فكرت فى أن تنقل ابنتها وولديها ليعيشوا معها حتى لا تضطر أن تتحمل نفقات بيتين على أن ينتقل زوجها ويعيش مع أبيه .. ولكن لا .. لو تركت ياسمين شقتها الكبيرة الفخمة فستستولى عليها الحراسة فورا وتعطيها غنيمة لأحد الضباط .. وفكرت ياسمين فى أن تطلق زوجها .. لقد زوجتها له أمها لأنه كان غنيا وابن باشا وصاحب مركز اجتماعى .. والآن لا هو غنى ولا ابن باشا ولا صاحب مركز .. إنه بالنسبة لها لم يعد سوى مجرد أب غير مشرف لأولادها .. ولكن لا .. وأمها تعارض بشدة .. لا طلاق .. ما سيكون وضعها بعد الطلاق .. ستفقد كل كيانها الاجتماعى .. إنها إن لم تكن حرم عزيز راضى .. فماذا تكون.. إنها لا تستطيع أن تقدم نفسها باسم أبيها وباسم عائلتها إلا إذا عادت يهودية .. واستسلمت ياسمين .. استسلمت عن اقتناع وعن خوف .. ثم أن زينب تعلم أن راضى باشا يملك أموالا لم تصل إليها الحراسة .. أموال فى الخارج وأموال فى خزائن مجهولة .. وفى العائلة كمية كبيرة من المصاغات لم تصل إليها الحراسة أيضا . إنه يستطيع أن يعيش هو وكل أولاده وكل ما سيضطر إليه هو الغاء مظاهر الغنى .. وقد بدأت ياسمين فاستغنت عن الطباخ والسائق وكل الخدم ما عدا مربية أولادها .. وأغلقت أربع حجرات من بيتها واكتفت بثلاث.. وبدأت تعود نفسها على حياة جديدة .. ومن يدرى ..

ربما حدث شىء جديد وألغيت الحراسة وعاد كل شىء كما كان .

وزينب ساخطة على ابنتها ياسمين .. إنها لا تستطيع أن تكون امرأة أعمال .. لا تستطيع أن تستغل أنوثتها .. إن رجال الثورة كرجال ما قبل الثورة .. واليوزباشى كابن الباشا ..كلهم رجال . فلماذا لا تتعامل مع هؤلاء الرجال كامرأة .. ولكن ياسمين تهرب من كل الرجال مكتفية بصديقتها خديجة .. خديجة هى التى تسيطر على عقل وتصرفات ياسمين وأمها تشك فيما بينهما وإن كانت لم تصرح لها بشكوكها .

أما زينب فقد استغلت نفسها كأنثى بعد الثورة وحققت صفقة بنفس الأسلوب الذى حققت به صفقات ما قبل الثورة .. فقد كانت تملك مجموعة كبيرة من الأسهم .. وكانت أسهم الشركات وخصوصا الأجنبية تهتز وتنهار .. وكانت البورصة لا تزال قائمة ولكن كان لا يمكن أن تبيع أسهمها فى البورصة وإلا ضاعت .. وقد فرضت الثورة نفسها على البورصة ولا شك أنها وضعت مندوبا لها هناك .. وبدأت تسأل .. وبدأت تتعمد أن تذهب إلى نادى الجزيرة لعلها تسمع أنباء عن الأسهم .. وهناك التقت بالبكباشى عبدالرحمن إبراهيم .. إنه ليس عضوا فى مجلس قيادة الثورة ولكنه لا شك من رجال الثورة مادام يتردد على نادى الجزيرة .. فقد كان النادى هو أول غنيمة استولى عليها ضباط الثورة .. وعبدالرحمن يلاحقها بنظراته منذ التقى بها فى أول نظرة .. وتعمد أن يسلط واحدة من عضوات النادى اللاتى احترفن صداقة الضباط لأن تقدمه

لها .. وجلس معها وهى تتعمد أن تبدو أنثى غالية ليس من السهل الاستيلاء على أنوثتها . وفى جلسة أخرى سألته فى براءة عن مصير الأسهم .. وصارحته .. إنها تملك أسهما ولا تدرى كيف تتصرف فيها .. وقال فى فرحة بعد أن أحس أنها فى حاجة إليه وأنه يستطيع أن يشتريها :

– إنه موضوع مهم .. ما رأيك لو التقينا فى المساء حتى أكون قد سألت وتكونى قد أعددت كل الأوراق .

وقالت وهى تدعى البراءة :

– أيـــن ..

قال وعيناه تلتهمانها :

– عندى .. إن بيتى هو مكتبى .

وقالت ضاحكة :

– لا .. عندى أنا .. فبيتى ليس مكتبى .. لذلك فهو أكثر أمانا .

وجاءها فى البيت .. إنه يذكرها بعبدالرحمن بك مدبولى الذى أخذت منه شقة جاردن سيتى وهى لا تزال عاملة مانيكير .. فلاح نهم .. كل ما فيه يصرخ .. ينظر حوله فى نظرات صارخة .. ويرفع الكاس وهو يفتح فمه كأنه يصرخ .. ويمد يده إلى يدها كأنه يشدها لتصرخ معه .. وهى تصده فى رقة مفتعلة وتقول ضاحكة :

– لننته أولا من موضوع الأسهم .. لا تظلمنى بإغرائك ..

كانت تعلم أنى أرملة محرومة .

وتستطيع دائما أن تضعه بذكائها حيث تريد .. وأن تستأنس صرخاته ونهمه .. وأعطته الأسهم ليبيعها لها ولم يبعها فى البورصة ولكنه باعها لبنك مصر . ولا تدرى كيف استطاع أن يفرض على البنك أن يشترى أسهما لا تساوى شيئا .. إنها الثورة .. وقد عاد إليها بثمانية آلاف جنيه سلمها لها وهو على موعد معها فى بيتها فى المنصورية .. وأعطته الليل كله هناك .

ولم تعد تريده .. ليس هناك صفقة أخرى يمكن أن تطلبها منه أو يقدمها له .. ولم تبذل جهدا فى إبعاده عنها فهو نفسه بدأ يخاف المخابرات .. ولا يريدها إلا فى فترات متباعدة .. وهناك .. فى المنصورية حتى لا يعرض نفسه للمخابرات .. ويظهر أن المخابرات قد عرفت عنه الكثير فقد قررت الثورة الحكم عليه بأقصى العقوبة فعينته سفيرا فى إحدى دول أمريكا الجنوبية .. كانت هذه أيامها أقصى العقوبة التى تفرض على الضباط الأحرار .

وتبتسم زينب وهى تتذكر البكباشى عبدالرحمن إبراهيم كأنها تهنىء نفسها على ذكائها .. ثم تلوى شفتيها فى قرف عندما تقفز صورة ابنتها ياسمين إلى خيالها .. إن ياسمين يمكن أن تصل إلى أكثر منها .. إنها لا تزال فى منتهى شبابها ، ومنتهى أنوثتها وجمالها .. إنها تستطيع أن تصل إلى أى ضابط من الحكام .. تستطيع أن تلتقط واحدا من داخل مجلس

قيادة الثورة كما فعلت الأميرة فايزة عندما احتاجت أن تسافر إلى الخارج .. لقد سافرت كأنها لا تزال أميرة وهى تحمل نفوذالسلطة الحاكمة .. سلطة مجلس قيادة الثورة .. وكانت قصة انتشرت فى مصر كلها أو على الأقل فى نادى الجزيرة .. وكانت ياسمين تستطيع أن تفعل ما فعلته فايزة .. إنها أصغر منها وأجمل وإن كان ما يغرى الضباط فى فايزة هو أنها أميرة وابنه ملك وأخت ملك . والثورة تستولى على نساء الملك .. انتصار من انتصارات الشعب .. ورغم ذلك فقد كانت ياسمين تستطيع أن تستولى على ضابط كما استولت هى على البكباشى عبدالرحمن . ومن يدرى ربما كان هذا الضابط قد استطاع أن يرفع الحراسة عنهم أو على الأقل استطاع أن يتركها تتصرف فيما تملكه دون تدخل الحراسة .

ولكن ياسمين لا تريد .. إنها ليست غبية ولكنها جبانة طوت حياتها كلها داخل أحضان صديقتها خديجة .. وخيبت أمل أمها فيها كأخيها ايزاك .

وقفزت دمعة فى عينى زينب وهى تتذكر ابنها ايزاك .. ايزاك .. إنها لا تستطيع الآن أن تسميه خالد .. إنه لم يكن أبدا إلا ايزاك . ترى كيف حال ايزاك فى إسرائيل . إنهم يقولون أن اليهودى الذى يعيش خارج إسرائيل يعتبر يهوديا بلا إله .. يهودى بعيد عن الرب .. لعل ايزاك وجد الله هناك وعاش مرتاحا فى رعايته .

ومسحت زينب دمعتها وابنتها ياسمين تدخل عليها مهللة ..

لقد قررت أن تشترك مع صديقتها خديجة ويفتتحا سويا « بوتيك » يبيعان فيه كل ما يلزم المرأة وسيبيعان أيضا التحف الصغيرة .. إن فى عائلة خديجة كثيرا من الضابط وتستطيع بهم أن تستورد كل ما تريد أن تبيعه .. ليس هذا فقط .. إن ضباط العائلة استطاعوا أن يجمعوا كثيرا من التحف الصغيرة التى وجدت فى القصور الملكية وفى البيوت التى فرضت عليها الحراسة .. سيعرضون كل ذلك فى البوتيك .. وياسمين لا تريد من أمها إلا رأسمال صغيرا .. ألف جنيه فقط .

ولم تستطع زينب أن تعارض ابنتها .. إن خديجة بالنسبة لياسمين هى الاله الذى يبحث عنه اليهودى خارج إسرائيل .. وما دامت خديجة هى صاحبة المشروع فلا تستطيع زينب إلا أن تستسلم مع ابنتها ياسمين وأخذت تناقشها بعد أن وافقت على إعطائها ما تريد وقالت لابنتها كأنها تلقى عليها درسا فى فن الحياة :

– المهم الزبائن .. لو استطعتم أن تجمعوا زبائن من الشخصيات المهمة لوصلتم إلى الكثير .

وقالت ياسمين بلا مبالاة :

– لا يهمنى من الزبون إلا أن يشترى .

وقالت زينب كأنها تشفق على ابنتها من غبائها :

– لا تكونى عبيطة .. إن البيع والشراء لا يعطى الكثير .. إنما اختيارك للزبون وعلاقتك به هى التى تعطى .. لو كنت قد اكتفيت بأجر تقليم الأظافر وأنا أعمل فى المانيكير لما وصلت

إلى ما أنا فيه .. ولكننا لا نزال نعيش فى حى الظاهر .. ولكنى كنت أنتقى الزبون .. وأعرف ماذا أستطيع أن آخذ منه .. إلى أن تزوجت أحد الزبائن .

وقاطعتها ياسمين كأنها لا تريد أن تسمع :

– يا أمى إننى لن أكون عاملة مانيكير .. سأكون صاحبة بوتيك .

وجرت من أمامها ..

إن ياسمين متعبة ..

ولكنها أرحم على أمها من أختها هاجر .

٨

والأيام تمر .

وفوجئت زينب بابنتها هاجر تقف أمامها بعد عودتها من المدرسة وتسألها وكأنها تهم بالبكاء :

– ماما .. هل أنت يهودية ؟

وبوغتت زينب ثم استردت أعصابها بسرعة وافتعلت ضحكة كأنها سمعت نكتة وقالت من خلال ضحكتها :

– من قال لك هذا الكلام ..

وقالت هاجر وهى تنظر إلى أمها نظرات جادة :

– تلميذة معى قالت لى إن أمها قالت إنك يهودية ..

وقالت زينب وهى لا تزال ضاحكة :

– كل الأمهات يغرن منى لأن ابنتى أجمل من كل البنات ..

ثم جذبت هاجر واحتضنتها واستطردت قائلة :

– قولى لزميلتك إن أمك أكثر إسلاما من أمها حتى لو كنت يهودية ..

ونظرت هاجر إلى أمها نظرة واسعة كأنها لا تفهم ما تسمعه ثم ابتعدت عنها صامتة وزينب تتبعها وهى تتنهد فى حسرة .

وكانت هاجر قد بلغت الثانية عشرة من عمرها وكانت تكاد

تكون كلها قطعة من أبيها .. ليس فيها شيء من أمها .. لا فى الشكل ولا فى الشخصية .. فهى أقرب إلى لون بياض أبيها .. وشعرها بنى كشعر أبيها .. وعيناها لهما لون فاتح أقرب إلى اللون الأخضر .. وطويلة رفيعة ويبدو أنها ستكون دائما أطول وأرفع من أمها .. وهى تتميز بنوع من الصمت المتعالى .. حتى ابتساماتها صامتة .. ومع صمتها تبدو كأنها مترفعة عن الكلام .. كأنها من الطبقة الارستقراطية التى لا تنزل إلى مستوى الناس العاديين .. ولم تكن متميزة بذكاء أمها .. إنها كأبيها ليست فى حاجة إلى الذكاء .. الحياة السهلة لا تتطلب الذكاء .. ولكنها كأبيها أيضا تبدو عليها السذاجة والطيبة المستترة وراء الحجاب الارستقراطى .

ولم تكن زينب قد روت لابنتها هاجر قصتها كلها .. لم تقل لها أنها كانت يهودية وأسلمت . لم تجد حاجة لأن تقول لها .. سيأتى اليوم الذى تعرف فيه كل شيء بعد أن تكون قد كبرت ونضجت .. ولم يكن حول هاجر ما يمكن أن يشد انتباهها إلى أى عرق يهودى فى العائلة .. فأختها ياسمين ليس فى تصرفاتها ولا فى كلامها ما يشعرها بأنها يهودية .. وأخوها خالد لا تراه كثيرا ولا تعرفه إلا باسم خالد .. ولم تكن تعرف شيئا عن أب إخوتها زوج أمها السابق .. كل ما كانت تعرفه عنه هو أن اسمه أبو بكر عبد الله . وقالت لها أمها إنها قاطعته منذ الطلاق ولا تراه ولا يراها .. وكل ذلك مع مغالاة زينب فى الحرص على مظاهر الإسلام والمقرىء الذى يقرأ القرآن فى البيت كل صباح .. ورغم ذلك فمنذ بدأت شخصية هاجر تتكون وهى لا تذوب فى شخصية أمها أو أختها .. إنها دائما شخصية منفصلة حتى بدأت ياسمين تحس بأنها تتعالى عليها.

كانت هاجر تتعالى فعلا .. ربما بدأت تحس بأنها وحدها ابنة شوكت بك ذو الفقار .. هى وحدها التى تحمل هذا الاسم.. وهى وحدها التى يجرى فى عروقها الدم الارستقراطى .. وهى وحدها صاحبة النعمة على أمها وعلى أختها .. صاحبة البيت وصاحبة الأرض .



ولم تسأل هاجر أمها مرة ثانية عن أصلها وعما إذا كانت يهودية .. ربما لأنها عرفت وربما لأنها لا تريد أن تعرف .. ولكنها بعد أن كبرت أكثر جاءت تسألها :

– لماذا لا نزور أخوتى ولا نراهم ؟
تقصد أخوتها من أبيها ..
وأجابتها زينب وهى تنظر إليها بعينين متوسلتين كأنها لا تريد منها أن تحاسبها على ماضيها :
– لم نكن أبدا نتزاور .. وفى حياة أبيك كنت لا أراهم إلا فى المناسبات .. وقد عشت مع أبيك خمس سنوات لم تكن كافية حتى يجمعنا فى عائلة واحدة .. وبعد أن مات أصبح كل بيت مستقلا بنصيبه فى الميراث .. إنهم لم يسألوا عنى أبدا .
وقالت هاجر كأنها تلوم أمها :
– ولا أنت سألت عنهم ..
وقالت أمها بغيظ :
– أنا امرأة وحيدة وكان من واجبهم أن يسألوا عنى ..
وقالت هاجر مبتسمة :
– وعنى ..
وقالت زينب وهى تضحك لابنتها :
– وعنك .. أنت الأخت الصغرى ..
وكعادة هاجر أدارت ظهرها وعادت إلى صمتها المتعالى .. وزينب تتبعها بعينين قلقتين .. لقد تعمدت منذ تم تقسيم التركة أن تبتعد عن كل عائلة ذو الفقار .. إنها تعلم أنهم لا يحبونها أو على الأصح لا يحترمونها .. إنهم لا ينسون أنها عاملة المانيكير اليهودية التى استولت على أبيهم .. ثم ماذا تريد منهم .. لا شىء .. ولا هم أيضا لهم شىء عندها .. حتى أختهم ابنة أبيهم لا يعرفونها ولم يروها إلا فى فترات خاطفة أيام أبيهم .. وربما كانت زينب تخشى على ابنتها من أخوتها .. ربما

أخذوها إلى طبقتهم بعيدا عنها .. ربما جعلوها تحس بالخجل لأن أمها هى هذه الأم .. ربما قالوا لها كلاما لا تريدها أن تسمعه .. وهاجر ورثت كل شخصية أبيها وعائلة أبيها ولا شك أنها قريبة من أخوتها .. ولذلك تعمدت زينب أن تبتعد عن عائلة ذو الفقار .. تخاف أن يأخذوا ابنتها منها .
والأيام تمر ..
إلى أن جاءتها هاجر مرة وهى فرحة مهللة على غير عادتها وقالت :
– هل تدرين من رأيت اليوم .
وقالت زينب وهى فرحة بفرحة ابنتها :
– مـن ..
وقالت هاجر وابتسامتها تتسع :
– أخى شريف بك ..
وغاضت الابتسامة فوق شفتى زينب ثم عادت وافتعلتها حتى تبدو بها أمام ابنتها وقالت :
– كيـف ؟..
وهللت هاجر :
– إنه كبير .. لقد أحسست كأنه أبى ..
وعادت زينب تقول بهدوء وهى محتفظة بابتسامتها المفتعلة :
– أسألك كيف التقيت بأخيك شريف .
وانطلقت هاجر بفرحتها قائلة .
– حكاية عجيبة يا ماما .. غريبة .. لقد كنت فى النادى وعرفتنى صديقتى هدى بصديقتها جيهان .. لم أكن قد رأيت

جيهان من قبل .. وقد لاحظت مدى أن هناك شيئا بيننا .. وفعلا .. إنها تشبهنى إلى حد كبير .. وبعد أن تكلمنا قليلا اكتشفت الحقيقة المذهلة أتعرفين من هى جيهان .. إنها ابنة أخى « أبيه شريف » .. إنها أكبر منى يا ماما .. وأنا عمتها ..

وضحكت هاجر واستطردت قائلة :

– من حق جيهان أن تسمينى .. طنط هاجر .. وقد ألحت على أن أذهب معها إلى البيت .. وكنت أريد أن أذهب حتى أرى أخى .

وتعبت زينب من ابتسامتها المفتعلة فسحبتها وقالت كأنها تتعجل ابنتها :

– كيف استقبلك شريف .. ماذا قال لك ؟

وقالت هاجر وهى لا تزال ضاحكة :

– دهش عندما عرفنى كما دهشت عندما عرفته .. وحدثنى كثيرا عن أبى . وسألنى عنك وهو يرسل لك تحياته وألح على أن أعود لزيارتهم ..

وقالت زينب كأنها تبكى حظها :

– هل قابلت زوجته ؟

وقالت هاجر وهى لا تزال فرحة :

– لا .. لم تكن هناك .. المهم أنى اتفقت مع جيهان على أن تنادينى .. طنط .. لم أكن أعرف أنى يمكن أن أكون طنط .. عمة .. وعمة لفتاة أكبر منى ..

وقالت زينب فى حدة :

– لن يصدق أحد أنك عمة أحد ..

وقالت هاجر وهى تجرى من أمام أمها :

– حتى ولو لم يصدقوا .. فأنا طنط .. طنط هاجر ..

ومن يومها وقد زاد تباعد هاجر عن أمها .. ولم يكن تباعدا مفتعلا ولكنه كان من طبيعة هاجر .. وأصبحت تزور أخوتها .. وجاء شريف وزوجته لزيارة زينب إكراما لابنتها هاجر .. وهى أيضا ذهبت لزيارة شريف حتى ترضى هاجر .. ولكن زينب ظلت دائما بعيدة .. بعيدة عن عائلة ذو الفقار .. وتحس أنها تبتعد عن ابنتها أيضا .. ابنة ذو الفقار .

وتحاول زينب أن تقاوم هذا التباعد ..

لماذا يحدث لها كل هذا ؟

لأنها غريبة عن عائلة ابنتها ..

إنها من أصل آخر ..

إنها كانت يهودية ..

وتبتسم وهى تتذكر محمود رفعت .. إنه هو أيضا لم يكن يعرف أنها يهودية .. وكانت قد ملت وحدتها بعد أن مرت ثلاثة أعوام على وفاة زوجها واقنعت نفسها أن من حقها أن يكون لها رجل .. ليس زوجا .. إنها لم تعد الآن فى حاجة إلى زوج .. ولكنها فى حاجة إلى رجل .. وقد قابلت محمود وهى فى زيارة لمدير البنك ومنذ اللقاء الأول وقع عليه اختيارها .. سيكون هو الرجل .. وهو وسيم .. لعله على أبواب الخمسين من عمره .. ولكنه ملىء بالحيوية .. إنه يتحدث بلباقة .. ونظراته تقول كل شىء فى أسلوب مهذب .. لقد أحست بنظراته بين ثدييها ويزحف بها فوق ساقيها .. لقد جعلها فى لحظات تحس بكل أنوثتها رغم أنها كانت تظن أن أنوثتها ضعفت مع سنها .. إنها الآن قد جاوزت الأربعين ولكنها بدأت

تحس بأنوثة الثلاثين .. أنوثة زمان ..

وكان يومها يتحدث مع مدير البنك عن أرض الحدائق .. هناك من يريد أن يبيع ومن يريد أن يشترى واشتركت معه فى الحديث كصاحبة أرض .. ثم قالت له وهى تتصرف :

– اتصل بى إذا بلغك جديد عن الأرض .

وقال مبتسما :

– إنى لم أقل كل ما عندى .. عندى الكثير ..

وفى نفس المساء حادثها بالتليفون .. وفى أيام دعته إلى بيت المنصورية .. وأعطته وأخذته إنهما فى نفس البيت الذى كان يجمعها بزوجها شوكت .. وهما على نفس الفراش .. ولكنها تحس بفارق كبير وهى تعطى نفسها لمحمود عما كانت تحس به وهى تعطى نفسها لشوكت .. فرق كبير بين طعم العشق وطعم الزواج .. إن العشق مثير والزواج مريح .. وانطلقت فى صدرها فرحة مثيرة وهى تعطيه أكثر .

وأصبحت تكتفى منه بلقاءات متباعدة مستورة لا تصل إلى عيون ولا آذان المجتمع .

وكانت قد مرت على علاقتهما شهور عندما قال لها وهى عارية بين أحضانه :

– هل أقول لك شيئا سمعته ..

قالت وجسدها ذائب فى جسده :

– قل ..

قال وهو يطوف بشفتيه الهادئتين فوق وجنتيها :

– سمعت أنك يهودية .. أقصد كنت يهودية ..

وأحست بجسدها يرتعش بجانب جسده .. وشفتيها تجفان

قبل أن تصلا إلى شفتيه .. لقد كانت تعتقد أنه يعرف .. إنه رجل مجتمع ويعرف كل الناس فكيف لم يكن يعرف أصلها وفصلها .. وأحست كأنها صدمت .. لقد كان يحبها وينام معها وهو لا يعرف أنها يهودية أو كانت يهودية .. كان يحب امرأة لا يعرفها .. كأنه لم يكن يحبها هى .

وقالت وهى تبعد وجنتيها عن شفتيه وتبتسم ابتسامة باردة :

– هذا صحيح .. كنت يهودية وأسلمت عندما تزوجت شوكت .

وقال ضاحكا :

– لم أكن أعرف ..

قالت من خلال ابتسامتها الباردة :

– وماذا بعد أن عرفت .

وأطال النظر إليها كأنه يراها من جديد وقال :

– لقد ازددت جمالا بعد أن عرفت .

قالت وهى تنظر إليه فى قلق تخفيه بابتسامة ضائعة :

– هل كنت تفضل لو كنت فى الأصل مسيحية .

وقد سألت هذا السؤال لأنها تعرف أن الرجل المسلم فى مصر يفرق بين المسيحية واليهودية .. إن المسيحية أقرب إليه من اليهودية .. إنه يحس معها كأنها من بلده ومن أهله ولكنه يحس باليهودية كأنها أجنبية .. كأنها جاءت إليه من بلد آخر وشعب آخر .

وقال محمود وهو يقرب شفتيه من شفتيها :

– إنى أفضلك أنت كما أنت سواء كنت يهودية أو مسيحية

أو بوذية .. إنك فوق كل ذلك .. إنك مـلاك .. إنك نعمة من ربنا علىّ .

وارتاحت لهذه الكلمة وعادت الحرارة إلى ابتسامتها وعادت تعطيه نفسها فى هدوء وحلاوة كما عودته وعودها .

ولكنها بدأت تحس كأن شيئا فيه تغير .. إن قبلاته أصبحت عنيفة ليس فيها هذا التبتل كأنه يشرب من شفتيها ماء الورد المقدس .. أصبح كأنه يأكل من شفتيها .. وأصابعه أصبحت أكثر جرأة على جسدها .. ثم بدأ يرفع الكلفة بينهما حتى فى أحاديثه .. لم يعد يكتفى بهذه اللقاءات المستورة عن الأعين والآذان .. إنه يريد أن يصحبها إلى المحال العامة .. ويريد أن تسافر معه إلى الاسكندرية .. و ..

إنها تعلم أنها تغيرت فى إحساسه ..

لم تعد أرملة المرحوم شوكت ذو الفقار ..

أصبحت امرأة يهودية ..

اليهوديات لهن صورة أخرى ..

وبدأت تبتعد عنه وتبعده عنها .. إلى أن وضعته فى دولاب الذكريات .. إنها قادرة دائما بذكائها على أن تبعد من تريد وتقرب من تريد .

إن محمود لم يكن يعرف .

وابنتها هاجر لم تكن تعرف أيضا ..

وهى تستطيع أن تتخلص من حاجتها إلى محمود ..

ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من حاجتها إلى هاجر .. ابنتها التى تزداد تباعدا عنها . إنها لم تعد تعرف عنها الكثير . لا تعرف شيئا عن صديقاتها ولا عما يجد بينها وبين أخوتها ..

كل ما تعرفه منها وعنها كلمات سريعة بلا تفاصيل .. قابلت فلانة .. ذهبت إلى هنا أو هنا .. ثم لا شىء أكثر .. لعلها لم تكن تفيض فى الكلام إلا عندما تريد ثوبا جديدا أو أشياء تشتريها فهى تعلم أن أمها مشهورة بذوقها فى اختيار الثياب وشطارتها فى الشراء .

والأيام تمر وهاجر تكبر وتكبر .. وكلما كبرت تزداد انفصالا بشخصيتها عن شخصية أمها وتزداد اقترابا من شخصية أبيها . الشخصية الارستقراطية التى لا تحتاج إلى الذكاء .. وكانت زينب حريصة على أن تجمع إيراد أرض المنصورية وتدخر الجزء الأكبر منه للمستقبل .. مستقبلها ومستقبل ابنتها هاجر وابنتها ياسمين وأيضا ابنها ايزاك .. وكانت هى المسيطرة على كل ما يقدر بمال .. هى التي تعرف كم وماذا عندها وعند ابنتها .. وما هو نصيبها وما هو نصيب ابنتها .. وربما كانت زينب بخيلة ولكن ذكاءها هو الذى كان يفرض عليها هذا البخل .. إنه ليس بخلا إنه حرص اليهودى على تأمين المستقبل .. وهاجر تكبر .. وبدأت تطالب .. وكلما كبرت أكثر تطالب بأكثر .. إنها الآن فى التاسعة عشرة من عمرها وهى تعلم أنها تملك كل هذه الثروة بل بدأت تعلم أنها بعد سنتين سيكون من حقها أن تتصرف هى فيما تملكه ولن تكون أمها وصية عليها ولذلك فهى تطلب بجرأة وفى أسلوب أمر .. أريد .. وأريد .. وكانت قد التفت حولها شلة من نادى الجزيرة استطاعت أن تستولى عليها . شلة اقنعتها بأنها أميرة .. وإنها شخصية من أصل أرقى من أصل هؤلاء الذى دخلوا النادى بعد الثورة . ولأنها أميرة فهى المسئولة عن

أفراد هذه الحاشية .. هى التى تدفع .

لقد طلبت مرة من أمها خمسمائة جنيه لأنها دعت الشلة كلها لقضاء ثلاثة أيام فى الاسكندرية .. لماذا خمسمائة جنيه . إنكم تقولون أنكم ستقيمون هنا فى فيلا صديقكم عامر وأخته .. فما حاجتكم إلى كل هذا المبلغ .. إن صديقتها هدى هى التى حددت هذا المبلغ .. وهاجر لا تستطيع أن تجادل صديقتها .. وتدفع الأم ..

وهاجر لا تكف عن الطلب .. لقد علموها ألعاب الورق .. الكوتشينة .. والتفوا حولها كل يوم يستنزفون أموالها . حتى أصبحت تخرج إليهم وهى تحمل حقيبة أكبر لتسع هذا المبلغ الذى تحمله .. مائة جنيه .. مائتين ..

وأكثر من ذلك .. لقد طلبت شراء سيارة خاصة .. فولكس فاجن .. يا بنتى إن فى البيت سيارتين تكفيان كلا منا .. لا يا ماما .. إنهما قديمتان .. من طراز المرحوم بابا .. أريد سيارة لأقودها بنفسى .. كل بنت تقود سيارتها .

واشترت الأم السيارة .. وفرحت بها هاجر .. الأميرة اشترت سيارة .. ولم ينقض شهران حتى فوجئت زينب بابنتها تهدى السيارة إلى جيهان ابنة أخيها شريف ذو الفقار .. وكادت تجن .. وهاجر تواجهها بصمتها البارد .. لا تنسى يا أمى أنها ابنة أخى .. وهى تريد السيارة وأنا أستطيع أن أشترى غيرها .. وتصرخ الأم .. أنت تخربين حياتك ومستقبلك .. احذرى .. إنك لا تملكين الملايين .. وهاجر لا تخرج من برودها .. حتى انتقاء ثيابها لم تعد تعتمد فيه على أمها .. لقد أخذوها إلى أسواق بعيدة .. وأقنعوها بأنهم

يستوردون لها من باريس ولندن وروما .. وتدفع .

وزينب تقاوم غباء ابنتها ولكنها تعود وتضطر للاستسلام . ربما لأنها تخاف أن تلجأ ابنتها إلى أخوتها لتشكوها إليهم .. وربما سعى أخوتها ليأخذوها منها .. من حق هاجر الآن أن تذهب وتعيش فى بيت أخيها .. وربما أخذوا منها الوصاية التى لم يبق على حقها فيها سوى شهور حتى يستولوا على كل ما ورثته أختهم من أبيهم وعلى كل ما ادخرته لها .. إنها تخاف لأنها ضعيفة .. لأنها لا تستطيع أن تنسى أنها غريبة عن هذه العائلة .

ولعل هناك سببا آخر يدعو زينب إلى الاستسلام إلى مطالب ابنتها .. إنها تحس أنها هى السبب فى عقدة ابنتها .. العقدة التى تدفعها لأن تثبت أنها ليست يهودية كأمها وأن ليس فى عروقها أثر من الدم اليهودى .. لم تأخذ من أمها شيئا ولم تترك فيها أمها شيئا . إنها فقط ابنة شوكت بك ذو الفقار .. عائلة أصيلة وارستقراطية .. وكان أمها عورة تتبرأ منها .. وقد حاولت زينب كثيرا أن تعالج عقدة ابنتها .. ورأت أن خير علاج هو أن تحكى لابنتها كل حكايتها منذ كانت يهودية زوجة لزكى راؤول وتقيم فى حى الظاهر .. ولكنها ما كادت تبدأ الحكاية حتى نفرت ابنتها وقالت كأنها تسد أذنيها .. لا يا أمى .. لا أريد أن أسمع .. كل هذا لا يهم .. لا يهمنى .. يكفى أنك أمى .. ثم انحنت وألقت على خدها قبلة ثم جرت من أمامها .

وكان من أهم ما تبحث عنه زينب هو الشاب الذى يمكن أن تكون ابنتها على علاقة به .. إن ابنتها لا تقول شيئا .. بل إنها

لا تدعو أصدقاءها سواء بنات أو شبان إلى البيت إنما تكتفى دائما بدعوتهم والحياة معهم خارج البيت .. وكانت تتعمد أن تذهب إلى النادى فى فترات زيارتها متباعدة لعلها تلتقط شيئا عن علاقة ابنتها بمن حولها من الشبان .. ولكنها لم تكن تلتقط شيئا . وكان أصدقاء ابنتها يلمحونها من بعيد وبعضهم يتقدم ليحييها تحية عابرة ولا يتقدم إليها أحد من الشبان .. وابنتها نفسها تنظر إليها فى دهشة كأنها تفاجأ كلما رأتها فى النادى ثم تقول كلمتين وتبتعد مع أصدقائها .

وكانت تسألها :

– قولى لى يا هاجر .. ألم يستقر رأيك بعد على أحد ؟

وتقول هاجر ضاحكة :

– إننا لسنا فى حاجة إلى رأى .. الحياة ليست فى حاجة إلى رأى ولكنها فى حاجة إلى ملئها بالحركة ..

وتقول الأم :

– ولكن لا شك أن هناك من يعجب بك ..

وتقول هاجر ببساطة :

– كلهم ..

وتعود الأم تسأل :

– وأنت .. ألم تعجبى بواحد منهم .. ؟

وتقول هاجر بنفس البساطة :

– كلهم ..

– إننا فى عصر الاشتراكية يا ماما ..

وزينب لا تستطيع أن تطمئن وكانت تحاول أن تستعين بابنتها ياسمين لتقص لها أخبار هاجر ..

وكانت ياسمين قد افتتحت مع صديقتها خديجة « البوتيك » الذى يبيعان فيه الأزياء النسائية المستوردة والتحف الصغيرة التى يستولى عليها أقرباء خديجة من الضباط من القصور الملكية وبيوت الحراسات ..

وياسمين كما هى .. خائفة دائما .. وتستمد كل اطمئنانها من صديقتها خديجة .. إنها تستقبل الزبائن وهى ترفع إلى كل منهم عينيها كأنها تسأله ماذا يريد منها .. وتتطلب فترة طويلة حتى تطمئن إلى الزبون وترتاح ابتسامتها على شفتيها .. وخديجة بجانبها مسيطرة على كل شىء .. مسيطرة على المحل .. وعلى الزبائن .. وعلى ياسمين شخصيا .. وقد اشتهر المحل مجمع مستوى الطبقة الثرية الحديثة .. ولا شك أن كل الأخبار ترد وتتردد بين جنباته .. ربما استطاعت ياسمين أن تسمع شيئا عن أختها هاجر .

وياسمين أرحم بأمها من هاجر .. ومهما اختلفت عنها ومعها فهى ليست معقدة من ناحيتها .. إنها هى وأمها مشتركتان فى تاريخ واحد .. ثم إنها لا تحب أختها هاجر .. أصبح بينهما نوع من التعالى إحداهما عن الأخرى .. هاجر تنظر إلى ياسمين كأنها من طبقة أخرى .. طبقة بلا أصل عريق .. وياسمين تنظر إلى هاجر كأنها كتلة من الغباء البارد .. ولذلك وعدت ياسمين أمها بأن تبحث لها عن أسرار هاجر بين أفراد شلتها .. إنها تعرفهم كلهم رغم أنهم من الجيل الأصغر الذى لا تتعامل معه .. وكثيرات من زبائن البوتيك يقضين ساعات طويلة لا فى الشراء ولكن فى مجرد الكلام .. وهى تستطيع بنعومتها وذكائها الذى يزحف تحت ستار

سذاجتها أن تعرف كل الأخبار .

ولم تنقض أيام حتى عرفت ..

وتركت الدكان وجرت إلى بيت أمها وهى فى هلع :

– هل تعرفين من هو الشاب الذى تحبه هاجر ؟

وانطلقت فى لهفة :

– من ؟

وقالت ياسمين كأنها تصرخ طالبة النجدة :

– الواد بوبس بتاع النادى .

واتسعت عينا الأم فى ذعر قائلة :

– تقصدين ابراهيم سلامة ..

وقالت ياسمين كأنها تندب :

– إنه هو ..

وابراهيم سلامة كان قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره وهو من عائلة كانت كبيرة وضاعت وأفلست كعائلة عزيز راضى زوج ياسمين .. ولكنه لم يستسلم لمصير عائلته .. إنه يستطيع دائما أن يحلل لنفسه كل شىء .. كل شىء يستطيع أن يأخذه فهو من حقه .. وتفرغ لعمليات الأخذ .. وكان أكثر ما يأخذه هو بنات العائلات الثرية .. وعرف كأنه يحترف هذا النوع من البنات .. يأخذهن ويأخذ منهن .. وكان يخفف من سوء سمعته وسامته وتفوقه فى بعض الألعاب الرياضية وشخصيته التى يرتفع بها أحيانا إلى حد الوقاحة ويهدأ بها أحيانا إلى حد الرقة والعذوبة .. وأصبح كأنه علم من أعلام هذه الطبقة .. علم يحمل اسم بوبس .. تدليل لاسم إبراهيم ..

وهو الآن يريد أن يأخذ هاجر .

وتعلقت عينا زينب بابنتها ياسمين وقالت كأنها تستغيث بها :

– مستحيل .. يجب أن نبعدها عنه .. ساعدينى يا ابنتى ..

وقالت ياسمين وهى تهز كتفيها :

– لا دخل لى بهاجر ولا بما تفعله .. أنت تعرفين أنها لا تحتمل كلمة منى ..

وقالت الأم فى توسل :

– إنك لا تعرفين ماذا يمكن أن يفعلها بوبس بنا .. إنه يمكن أن يسلط هاجر لتفلسنا كلنا ..

وتنهدت الأم كأنها تهم بالبكاء واستطردت قائلة .

– إنى أعرف الآن ماذا كانت هاجر تفعل بالنقود التى تطلبها منى . كانت تعطيها لبوبس .

وقالت ياسمين وهى تبتسم ساخرة :

– لقد سمعت أنه خسر خمسين جنيها فى لعبة البلياردو فى الأسبوع الماضى .. من أين له الخمسون جنيها وهو لا يكسب مليما .

وقالت الأم فى حسرة

– فى الأسبوع الماضى سحبت منى هاجر مائة جنيه .. لا شك أن بوبس خسر منها الخمسين .. ماذا أفعل يا ابنتى ماذا أفعل .. إن الفشل الوحيد الذى أعانيه فى حياتى هو فشلى مع هاجر .

وقالت ياسمين كأنها تخفف عنها :

– إنى واثقة أنك ستتخلصين من بوبس .. إنك شاطرة دائما يا ماما ..

وقالت الأم فى يأس :

– فكرى معى يا ابنتى ..

وتركتها ياسمين وهى تفكر فى انتظار ابنتها هاجر .. كيف تثير معها الموضوع .. كيف تأخذها بعيدا عن هذا اللص .. لص البنات الساذجات الثريات ..

وضغطت زينب على أعصابها حتى سيطرت على نفسها .. وقامت وغيرت ثوبها وأنعشت من وجهها وجلست وهى تمرن نفسها على أن تبتسم ابتسامة حنونة تستقبل بها ابنتها هاجر عندما تأتى إلى البيت ..

وقالت لها فى رقة بعد أن عادت :

– هاجر .. هل تعرفين ابراهيم سلامة ..

ونظرت إليها هاجر كأن أمها أخطأت خطأ كبيرا وقالت :

– تقصدين بوبس ..

وقالت الأم ضاحكة فى افتعال :

– فعلا .. إنه بوبس ..

وقالت هاجر فى مرح :

– إنى أعرفه جدا جدا جدا ..

وقالت الأم فى عتاب هادىء :

– ولماذا لم تقولى لى .. ؟

وقالت هاجر من خلال ابتسامة واسعة :

– لم يكن هناك سبب لأقول لك ..

وقالت الأم وقد بدأ قلبها يضرب :

– وما هو السبب لتقولى لى الآن ..

وقالت هاجر فى بساطة :

– لقد اتفقنا على أن نتزوج ..

وخبطت الأم على صدرها وصرخت :

– لا يمكن .. مستحيل .. ليس معنى أن تعرفيه أن تتزوجيه.

وقالت هاجر وهى تنظر إلى أمها فى وقاحة :

– أنا لم أسألك رأيك ..

وصرخت الأم :

– إنك لم تكونى فى حاجة إلى رأيى وأنت تعرفينه .. ولكن الزواج يمسنا كلنا .. وهو زواج لا يشرفنا .. إنه شاب فاشل .. لا عمل له ولا يملك مليما .. بل إنه لم يتم تعليمه .. إنه رجل يمكن أن تلعبى به ويشغل لك وقتك ولكن لا يمكن أن تعتمدى عليه كزوج ..

وقالت هاجر فى برود .

– اتفقنا على أن نفتح شركة تصدير واستيراد ..

وقالت الأم ساخرة فى مرارة :

– من أين سيأتى بالمال .. ؟

وقالت هاجر فى بساطة :

– سأعطيه المال وهو يستغله لى ، سيجعل منى مليونيرة ..

وصرخت الأم :

– إنه نصاب .. لن تأخذى ولا مليم ..

وقالت هاجر فى حدة :

– إنها أموالى تركها لى أبى .. بل إننا فكرنا أن نبيع أرض المنصورية .. ولن تستطيعى أن تأخذ منى شيئا .. بوبس قال لى إن من حقى أن أتصرف .. أنا صاحبة كل شىء ..

واختفت هاجر من أمام أمها .

وأسقطت زينب رأسها بين يديها .. إنها تحس أنها وحيدة لا سند لها .. إن بوبس يستطيع أن يفعل بها ما يريد .. ليس لها رجل يحميها منه .. لو كان ابنها ايزاك هنا لاستطاع أن ينقذها وينقذ أخته وينقذ أرض المنصورية من هذا المجرم .. ولكن ايزاك ليس هنا .. ربما تضطر أن تلجأ إلى شريف ذو الفقار أخ ماجر .. هل يستطيع شريف أن ينقذهم .

•••

وبدأت حرب ٥٦ ..

اليهود احتلوا كل سيناء ..

وصلوا إلى القناة ..

وزينب أقامت فى بيت المنصورية تبكى ..

لا تستطيع أن تكف عن البكاء ..

ولا تدرى لماذا تبكى ..

٩

كانت زينب قد ربطت نفسها بجانب الراديو تسمع أخبارالحرب وعيناها غارقتان فى دموعها .. وتطوف بين محطات إذاعة إسرائيل ولندن وباريس ومونت كارلو والقاهرة ودموعها تطوف معها .

وهى لا تستطيع أن تحدد بالضبط لماذا تبكى .. إن دموعها أقوى منها وتنطلق رغم إرادتها .. لعل ابنها ايزاك يحارب ضمن القوات الإسرائيلية .. لعله الآن يجتاز سيناء فى دبابة أو فى طائرة أو يحمل سلاحه بيديه بين المحاربين .. وقد تصيبه رصاصة مصرية ويقتل .. تقتله بلده التى ولد وعاش فيها .. لا .. إنهم فى إسرائيل أذكى من أن يتركوا رجالهم يموتون بهذه البساطة .. بمجرد رصاصة .. إنهم لم يدخلوا الحرب إلا وهم مطمئنون على أولادهم .. وقد دخلوا ومعهم فرنسا وبريطانيا .. لعل جنود فرنسا وبريطانيا سيحاربون نيابة عن أبناء إسرائيل .. ثم إن محطات الإذاعة اذاعت أن الجيش المصرى ينسحب إلى ما وراء قناة السويس .. لم يحدث قتال .. لا يمكن أن يكون ابنها ايزاك قد تعرض للموت .

وتمد يدها فى لهفة إلى مفتاح الراديو وتجرى به إلى إذاعة إسرائيل .. إنها تعرف أنهم يذيعون أسماء قتلى الحرب

الشهداء .. ولكن الإذاعة لا تذيع شيئا .. وهم يذيعون بالعبرية .. وهى لا تعرف العبرية إلا بضع كلمات التقطتها وهى صغيرة من كلام أفراد العائلة . وكلمات كانت ترددها فى صلواتها .. كل أفراد العائلة تعلموا العبرية ما عدا هى .. كانت تعتبرها لغة ثقيلة وليست لغة ارستقراطية كالانجليزية والفرنسية .. إنها كاللغة العربية تماما فيكفيها العربى .

وينطلق خيالها من خلال دموعها وتتصور ابنها يحمل سلاحه فى الصحراء .. ثم ترى بخيالها مدحت ذو الفقار ابن زوجها .. إنه ضابط فى الجيش .. قد يكون قد ذهب إلى هناك ليحارب هو الآخر .. ليقتل ابنها خالد .. ايزاك .. من منهما يقتل الآخر .. ثم ينطلق خيالها أبعد وتتصور ابناء ابنتها ياسمين .. سامى وفريد .. وقد كبروا وبدأ يحاربان خالهما .. أو أولاد خالهما .. أولاد الخال يقتلون بعضهم بعضا .. لو أنها قد أنجبت من شوكت ولدا فلعله كان قد كبر وذهب هو الآخر ليحارب .. إنه سيكون مسلما مصريا .. وقد لا يعلم أن له من أمه أخا يهوديا .. فيرفع سلاحه ويقتل ايزاك .. يقتل أخاه .

وابنتها ياسمين تركت صديقتها خديجة فى البوتيك وتركت زوجها فى البيت وجاءت واقامت معها .. إنها فى مثل هذه الأيام لا تستطيع أن تبتعد عنها .. إن مصيرهما واحد .. كل منهما كانت يهودية .. واليهود يحاربون المسلمين .. والمسلمون قد لا يغفرون لهما أنهما كانتا يهوديتين .

وياسمين لا تستطيع أن تكون فى قوة شخصية أمها .. إن أمها تبكى ولكنها قوية واثقة أنها تستطيع أن تتحكم فى مصيرها .. وياسمين لا تبكى ولكنها تحس فى داخلها بانهيار

كل أعصابها .. إنهيار يفرض عليها الصمت .. كل شىء فيها صامت حتى أذنيها .. فهى لا تسمع محطات الإذاعة كلها بل لا تسأل عن الأخبار .. ومن تحت صمتها يتحرك فى داخلها إحساس بالخوف .. أى شىء يمكن أن يحدث لها مخيف .. وتحاول أن تقاوم هذا الخوف بتغليب إحساسها بالقرف .. كل شىء حولها مقرف .. منذ ولدت وهى تعيش فى قرف .. كانت قرفانة وهى يهودية .. وازداد قرفها عندما جعلوها مسلمة .. وقرفانة وهى تبحث عن زوج وقرفانة بعد أن زوجوها .



وهى تعيش مستجيرة بصديقتها خديجة من القرف .. ولكنها الآن لا تستطيع أن تستجير بها .. لا تستطيع إلا أن

تختبىء فى أمها حتى تقاوم الخوف .

وهاجر تجلس معهما وهى تنظر إلى أمها وأختها فى تساؤل كأن هناك سرا لا تستطيع أن تناقشه معهما .. إنها تعلم أن أمها كانت يهودية وأختها كانت يهودية .. ترى لمن يريدان النصر الآن .. لليهود أم للمسلمين .. لإسرائيل أم لمصر .. وكانت فى نظراتها تبدو كأنها تشفق على أمها وأختها .. وأحيانا تبدو كأنها شامتة عندما ترى الخوف يمتص لون أختها ياسمين .

وقالت هاجر فى بساطة :

– أخى أبيه مدحت ذهب إلى الحرب .

ورفعت الأم عينيها إليها فى قوة حاسمة كأنها تقيدها من لسانها حتى لا تزيد ثم قالت :

– أعاده الله لنا بالسلامة .

وعادت هاجر تسأل فى لهجة ساذجة :

– لماذا تبكين كثيرا يا أمى ..

وعادت الأم تقول بلهجتها القوية :

– لأنى أكره الحرب .. أكره أن يقتل الناس بعضهم بعضا .. وأنت تعلمين .. ربما كان لنا أقارب يقاتلون هناك ولنا أقارب يقاتلون هنا .. إنى أبكى خوفا عليهم .

وقالت هاجر فى سذاجة :

– ولكن من سينتصر .

وقالت الام وهى تتنهد فى أسى :

– النصر والهزيمة كلاهما يترك ضحايا .. يترك قتلى ..

صدقينى أنا لا أتمنى الهزيمة ولا أتمنى أيضا النصر .. أتمنى أن نعيش بلا حرب .

ونظرت هاجر إلى أمها كأنها لا تفهمها ثم هزت كتفيها بلا مبالاة وهمت أن تبتعد كعادتها .. واستوقفتها أمها تسألها :

– ما هى أخبار بوبس ؟

وقالت هاجر فى بساطة :

– لم يحدثنى اليوم فى التليفون .

وقالت الأم كأنها تبحث عن أمل :

– ألم يجند .. ألم يدخل الجيش ليشترك فى الحرب .

وقالت هاجر كأنها تخيب أملها :

– أنت تعلمين إنه وحيد أمه وأبيه .

ثم جرت من أمامها وبين شفتيها ابتسامة الشماتة .

وجاء عزيز راضى زوج ياسمين وتلفت حوله حتى يطمئن إلى أن ليس معهم أحد من الخدم ثم انطلق قائلا فى فرح :

– الانجليز دخلوا .. كل شىء سيعود كما كان .

واستقبلت الأم فرحته فى صمت .. إنها حتى لو فرحت فلا تريد من أحد أن يرى فرحتها حتى لا تتهم بها .. ولوت ياسمين شفتيها وقد اشتد إحساسها بالقرف .. إنها تحس أنها تهم أن تتقيأ كلما رأت زوجها .. ومنذ أخذت أرضه وفرضت عليه الحراسة وهى تحتفظ به كزوج لمجرد أن تحتفظ باسم رجل مسلم .. وهى تتركه يعيش فى عالمه الضيق وحده وتعطيه بضعة جنيهات كانت تأخذها من أمها ثم أصبحت تأخذها من أرباح البوتيك الذى افتتحته مع خديجة .. تعطيه ليدفع ثمن الخمر التى يشربها عندما يرفض أبوه أن يعطيه من

الأموال التى استطاع أن يهربها ويجنبها من الحراسة .. وتعيش هى مع ولديها .. وسمير فى عالم آخر حتى لو كانوا كلهم يقيمون فى بيت واحد .

● وتلقى عزيز برود الأم وقرف زوجته فى دهشة ثم صرخ :

– ألا تعرفون ماذا يعنى دخول الانجليز .. يعنى لم تعد هناك ثورة ولا ضباط .. يعنى كل ما سرقوه منا يعود إلينا .

الأم لا تزال باردة وياسمين لا تزال قرفانة .

وتنبه عزيز إلى أن ليس من حقه أن يقول مثل هذا الكلام حتى لا يضيع وتلحقه داهية .. فابتلع ريقه وسيطر على أعصابه وسكت .

وزينب لم يعد يكفيها أن تستمع إلى محطات الإذاعة إنها تريد أن تعرف ماذا يجرى حولها فى البلد .. وقد سمعت فى الإذاعة أن مصر بدأت فى إبعاد الرعايا الفرنسيين والانجليز .. تريد أن تعرف من أبعد لعل بينهم من تعرفه .. ثم ماذا تفعل الحكومة باليهود .. يهود مصر هل تعتبرهم إسرائيليين وتبعدهم كما أبعدت الانجليز والفرنسيين .

وفكرت أن تتصل بصديقتها اليهودية سارة .. سارة عندها دائما كل أخبار اليهود .. ولكنها خافت أن تتصل بها حتى لا تكشف هى الأخرى عن يهوديتها .. فلم تذهب إليها بل ولم تحادثها فى التليفون واكتفت بأن تتصل بصديقتها القديمة نادية ولكن نادية ليس عندها أخبار عن اليهود .

ومع الأيام .. وبعد أن انتهت الحرب وانسحبت جيوش الانجليز والفرنسيين واليهود بدأت تسمع الأخبار .

إن كثيرا من اليهود قد أبعدوا وبينهم إبراهيم سرور الذى

كان حارسا للملك فاروق وعاش طول عمره فى مصر على أنه مسلم ولو أنه يهودى .. وقد أبعد على اعتبار أن زوجته فرنسية ولكن لا شك أن الثورة لا تريد أن يذاع عنها أنها تبعد اليهود لأنهم يهود .. بل إن الثورة اعتقلت كثيرا من اليهود .. ربما اعتبرتهم جواسيس أو لمجرد حماية الجبهة الداخلية كما يقولون .

ولكنها فى أمان .. لا أحد يشير إليها ولا تحس بخطر قريب يهددها .. وهى لا يمكن أن تفكر فى الهجرة .. لن تترك أرض المنصورية .. ولن تترك هذا العز الذى تعيش فيه وهذه الارستقراطية التى تحيط بها هى وابنتيها .

ورغم ذلك فهى تشعر أنها فى حاجة إلى حماية .

لن يحميها إلا أن تتزوج .. أن تنتسب إلى رجل له قيمة فى هذا العهد كما كانت تنتسب إلى شوكت بك ذو الفقار فى العهد السابق .

ووجدت الرجل .

العميد فهمى جار الله .. إنه من ضباط الجيش ومن رجال الثورة .. لا شك أنه من رجال الثورة .. وقد سمعت أنه كان فى يوم ما مديرا لمكتب وزير الداخلية .. كان يحكم البلد .. ثم أصبح يحكم شركة الصناعات الأهلية فى الاسكندرية كرئيس لمجلس الإدارة .. ولا تدرى ماذا يحكم الآن .. ولكن لا شك أنه يحكم شيئا ما .. إنه ضابط فى الجيش وكل الضباط يحكمون .

وقد التقت به فى زيارة لصديقتها نادية .. ومنذ اللقاء الأول وهى تحس بعينيه تأكلان كل قطعة منها .. ولكنه عجوز .. لعله جاوز الخمسين واقترب من الستين .. لا يهم .. إنها هى أيضا قد جاوزت الخامسة والأربعين ولم يعد يصلح لها إلا رجل

جاوز الخمسين .. المهم أنه محتفظ بفحولته وشعره الأبيض يضفى على وجهه الأسمر وسامة رائعة .. وتركت نفسها لعينيه تأكلانها وهى تفتح شهيته بابتسامتها الحلوة وكلامها الذكى .. ولكنه متزوج وله أولاد .. لا يهم .. إنها وقد بلغت هذه السن فلن تجد إلا رجلا متزوجا أو على الأقل له أولاد .

وقد أوصلها ليلتها إلى بيتها فى الزمالك وهى طول الطريق تترك له كل خياله ولكنها لا تعطيه شيئا .. إنها منذ الدقيقة الأولى قررت أن تمثل شخصية السيدة الصعبة التى لا يمكن الوصول إليها إلا بالزواج .. وقال لها وهما على باب البيت .

– ألا استحق دعوة إلى كأس .

قالت ضاحكة :

– إنك تستحق دعوة إلى الجنة .. ولكنى كما تعلم أقيم فى جنتى مع ابنتى .. ياسمين وهاجر .. ولو رأيانى أدخل فى الليل ومعى رجل لوجدت كلا منهما وقد عادت إلى ومعها رجل .. إنى أم يا فهمى بك .

ومن يومها وهو لا يتركها ولا يستطيع أن يصل إليها .. وهى تشده ولا تعطيه .. إنها تريده كزوج لا كعشيق فالعشيق قد يعطيها حماية خاصة .. حماية فيما بينه وبينها .. ولكنها تريد من يحميها حماية عامة .. يحميها مما يمكن أن يحدث لها عندما يقال إنها يهودية .. يحميها من الحرب ومن الحكومة ومن الناس .. حماية لا يمكن أن يوفرها إلا الزواج .

وتم الزواج .

وقبلت زينب أن تتزوج فهمى زواجا عرفيا .. لا يهم .. مادام فى يدها ورقة ومادامت تستطيع أن تقول إنها زوجته أمام الناس .. وفى أيام استطاعت أن تنظم حياتها معه .. إنه

يقضى معها ليلتين فى الأسبوع وباقى الليالى يقضيها مع زوجته وأولاده .. إنها هى أيضا فى حاجة أن تقضى هذه الليالى مع ابنتيها ومع مشاكلها .. ثم إنها لم تطلب منه أن يحمل أى مسئولية كزوج حتى مسئولية مصروف البيت .. إنها ليست محتاجة .. وهى تعد له أيامه التى يقضيها معها كأنها ترتفع به إلى الجنة .. وهو قد يأتى وفى يده هدية .. ولكن كل هذا ليس له حساب بينهما .. المهم أنها أصبحت تشعر بحماية والناس من حولها أصبحوا يحسبون لها حسابا .. إنها زوجة العميد فهمى جار الله .. حتى أولاد زوجها بدأوا ينزلون من عليائهم ويتوددون إليها وكان ابن شريف يريد أن يسافر إلى أوربا .. والسفر ممنوع .. وجاءوا إليها يرجونها أن يتوسط له العميد فهمى .. وسافر ابن شريف .. كل شىء أصبح سهلا .. حتى زراعة أرض المنصورية قد تغيرت فقد استطاع فهمى أن يقنع وزير الزراعة بأن تساهم الوزارة فى استصلاح الأرض لزراعة النباتات الطبية وتصديرها . وتكفلت الوزارة بالمصاريف .. خدمة وطنية .

وازدادت زينب أمانا وغرورا بذكائها .

إلى أن فوجئت بابنتها هاجر تقف أمامها وبين شفتيها ابتسامة مرتبكة قائلة :

– ماما .. أنا اتجوزت .

واتسعت عينا زينب كأنها تصرخ بعينيها وقالت من خلال صراخها :

– تزوجت .. كيف .. ومتى .

وقالت هاجر وهى لا تزال خجلة من أمها :

– منذ يومين . استدعينا المأذون وتزوجنا .

وصاحت الأم :

– لماذا لم تقولى لى .. لماذا تتزوجين فى السر كأنك شرموطة ؟

وقالت هاجر وهى تحاول أن تخفف عن أمها بابتسامة :

– إن بوبس يعلم إنك لن توافقى ولن يوافق أخى أبيه شريف .. لن يوافق أحد منكم فقررنا أن نتزوج أولا ثم نبلغكم الخبر .

وصرخت الأم :

– استغفلك .. نصب عليك .. إنه لا يستطيع أن يتزوج أى فتاة إلا فى السر حتى لو كانت ابنة خادمة لأنه لا أحد يمكن أن يزوجه ابنته .

واحتدت هاجر وقالت كأنها تدافع عن زوجها وكأنها تعاير أمها :

– على الأقل إنه ليس متزوجا من غيرى .. لم آخذه من زوجته .

وسكتت زينب وهى تضغط على أعصابها حتى تستعيد بعض هدوئها ثم تجاهلت معايرة ابنتها لها بأنها تزوجت رجلا متزوجا وتزوجت عرفيا .. وقالت فى صوت حزين كأنها تهم بالبكاء :

– وماذا قررتما بعد الزواج .

وقالت هاجر فى بساطة :

– كل منا سيبقى كما هو إلى أن نقرر ماذا نفعل .

وابتسمت زينب ابتسامة ساخرة حزينة ..ابتسامة إنسانة مهزومة .. إنه يريد أن تبقى ابنتها كما هى إلى أن يعرف كم سيأخذ من أموالها .. إلى أن تجد له البيت .. وتفتح له الحياة

الواسعة .. إنه لا يملك مليما واحدا ليتزوج ولا حتى ليعيش .

وقالت الأم فى ضعف :

– أطلبى منه أن يأتى لزيارتى .

وقالت هاجر فى فرح :

– هل وافقت على الزواج .

وقالت الأم فى مرارة ساخرة :

– الزواج حدث .. لم يعد مهما أن أوافق أو لا أوافق .

وقالت هاجر :

– ولكنك لن تتشاجرى معه .

وقالت الأم كأنها تندب حظها :

– مادام قد أصبح زوجك فهو الأقوى .. هو صاحب الكلمة.. الكلمة المسجلة على ورقة .

وقالت هاجر ضاحكة كأنها تخفف عن أمها :

– لا تكونى حماة قاسية .

وقالت الأم :

– أنا حماة تعيسة سواء بالنسبة لك أو بالنسبة لأختك .. كل منكما تزوجت مصيبة وقعت على رأسى .

وقالت هاجر فى حدة :

– كيف تريدين أن أدعوه إليك وأنت تعتبرينه مصيبة .

وقالت الأم فى ضعف :

– لا تخافى يا ابنتى .. إنها مصيبتى أنا .. وليست مصيبتك .. من يدرى ربما يستطيع أن يسعدك .. وعندما أقابله سأعتبره أملا قد يتحقق .

وابتسمت هاجر وخرجت قائلة :

– سأحاول أن أدعوه الليلة .

وكانت زينب قد دعت ابن زوجها شريف ذو الفقار منذ سمعت عن حكاية ابنتها هاجر مع إبراهيم سلامه أو « بوبس » كما هو معروف فى النادى ، ورجته أن يحاول إبعاد أخته عن هذا الشاب .. إنه هو الآخر يعرف إنه شاب منحل لا يملك ولا يعمل وإن كان لا يزال يحفظ له إنه من أبناء عائلة قديمة محترمة .. عائلات زمان .. وقد حاول شريف فعلا أن يقنع أخته هاجر بالابتعاد عن بوبس .. بل إنه عرض عليها أن تقبل ثلاثة من الشبان تقدموا لخطوبتها .. وأقلهم أنظف من بوبس .. ولكن هاجر كانت ترفض وشريف لم يكن حازما .. إن ابنته جيهان نفسها من أفراد شلة النادى الذين يعجبون ببوبس ويعتبرونه أشطر واحد فيهم وأكثرهم انطلاقا نحو دنيا جديدة هروبا من دنيا قديمة ولدوا فيها رغم أنوفهم .

ماذا تفعل زينب .

إنها تستطيع أن تطلب من زوجها فهمى أن يقبض على بوبس ويعتقله إلى أن يطلق ابنتها هذا سهل تكفى كلمة من أى ضابط لاعتقال أى إنسان .. ولكن لا .. أبدا .. إنها بذلك تخسر ابنتها إلى الأبد .. إنها ستجعل من بوبس أمامها بطلا شهيد الغرام راح ضحية حبه لها كما راح روميو ضحية جوليت .. ومن يدرى ربما انتحرت هاجر أيضا كما انتحرت جوليت مقتنعة أن العالم كله أو على الأقل نادى الجزيرة سيبقى العمر كله يردد قصة حب هاجر وبوبس .

وزينب تفكر .

إن الطريقة الوحيدة هى أن تحمى أموال ابنتها هاجر من أن يستولى عليها بوبس .. سيجد أنه لم يخرج من هذه الزيجة بشىء وقد يضيق من أن ينتظر حتى تصبح هاجر حرة فى

أموالها ليستولى عليها فيطلقها . أو على الأقل يسىء إليها ويشوه حياتها معه حتى تهرب منه وتطلب هى الطلاق . وإذا حدث العكس .. وتحمل بوبس أن يعيش مع هاجر دون أن يعتمد على أموالها فلا شك أنه بذلك يصبح رجلا آخر . وزوجا يشرف العائلة .

وجاءت هاجر بحبيبها بوبس .. إنه زوجها .. ووقف أمام زينب معتزا بنفسه وفى عينيه نظرات متحدية كأنه يستهين بكل شىء وبين شفتيه ابتسامة ساخرة يسخر بها من كل شىء .. إنه وسيم مثير يضج بالحياة ربما لو كانت زينب قد التقت به أيام صباها فى حى الظاهر لما استطاعت هى الأخرى أن تقاومه .

وقالت زينب وهى تحاول أن تحتفظ لنفسها بشخصية الأم الحنون الهادئة :

– هاجر حكت لى كل شىء .. ومن حقى أن أغضب منك يا إبراهيم يا ابنى .. كنت أعرف من زمان أن هاجر تحبك ومادمت قد سكت على هذا الحب فكان المفروض أن أوافق على الزواج .

وقال إبراهيم وابتسامته تتسع :

– أردنا أن نوقع الإجراءات ولا نتعبك .. وأنا آسف .. وهاجر آسفة .. أرجوك اصفحى عنا .. ثم انحنى والتقط يدها وقبلها .. ثم اقترب من خدها قائلا :

– ودعينى أقبل حماتى .

وأحست زينب بقبلة جريئة تلقى على خدها .. ولم تبادله القبلة كأم .. سكتت .. وتفرع بينهما حديث طويل عن عائلته وعن مستقبله .. إلى أن قالت هاجر :

– ماما .. هل يمكن أن يقضى بوبس الليل معنا .. أظن أن هذا أصبح من حقه وكل الناس يعرفون أننا تزوجنا .

واغتصبت زينب ابتسامة علقتها على شفتيها وقالت :

– ولكن عمك فهمى لم يعرف بعد .. انتظرا إلى أن يعرف وبعدها ندبر كل شىء .

ونظر إبراهيم إلى ماجر بعينين متسائلتين كأنه يسألها من هو فهمى هذا ..

وقالت هاجر :

– إنه أونكل فهمى جار الله .. زوج ماما .

وضاعت ابتسامة إبراهيم . وقال كأنه فوجىء بضربة على رأسه :

– لم أكن أعرف أن ماما متزوجة .

وقالت زينب وهى تضحك ضحكة خافتة :

– إن زواج العواجيز لا يعلن .

ولم يشاركها إبراهيم ضحكتها ولا حتى استطاع أن يفتعل ابتسامة وصافحها وهم أن يخرج وهاجر تجرى وراءه ثم توقفت والتفتت إلى أمها قائلة :

– ماما .. هل أستطيع أن أذهب مع بوبس وأنام عنده .

وقالت الأم وهى تمسك أعصابها حتى لا تنفجر غيظا :

– انتظرى حتى يعرف عمك فهمى .

وترددت هاجر برهة ثم قالت وهى تميل على صدر إبراهيم:

– تعال نجرب تقاليد العائلات .

وقبلها إبراهيم قبلة سريعة وتركها قائلا :

– لم تكن نستطيع الليلة .. إنى على موعد مع الشلة .

وتركها واختفى .



ورووت زينب القصة لزوجها فهمى مع المبالغة فى انحلال وخطورة إبراهيم .. وتأثر فهمى فعلا من زواج هاجر دون علم العائلة .. إنها جريمة خطف .. ثم هدأ قليلا عندما تذكر أنه هو أيضا قد تزوج سرا .. ولكنه لا يستطيع أن يتحرر من الإحساس بأن إبراهيم هذا قد اعتدى على العائلة .. وقال فى سخط :

– هذا الصنف من الأولاد هم الذين يأخذون البلد إلى الدواهى .. يجب على الثورة أن تؤدبهم .. خلاص .. غدا سيختفى هذا الولد من حياة هاجر .

وقالت زينب فى هلع :

– كيف ؟

وقال فهمى فى بساطة

– سيقبض عليه ويلقى فى أى سجن

وقالت زينب كأنها تستحلفه :

– لا .. اعمل معروف .. إننا بذلك نقضى على هاجر

وبدأت زينب تقنع زوجها بخطتها .. المهم ألا يصل إبراهيم إلى أموال هاجر .. أن يحس أنه لم يخرج بزواجه منها بشىء.. وحتى تحكم الحصار حوله فستقول لهاجر وللجميع أنها قد وكلته عنها فى إدارة أموالها .. إنه لن توكله فعلا ولكنها ستقول هذا الكلام حتى يحس إبراهيم إنه لا يستطيع أن يلعب بالبنت وأمها وأن عليه أن يواجه رجلا .. ضابطا فى الجيش .

ووافق فهمى على الخطة .

وابتسمت زينب تهنىء نفسها على ذكائها .. إن اليهودى يستطيع دائما أن يحمى نفسه .. وربما ارتفع ساعتها إحساسها بالغرور لأنها يهودية .

والتقى العميد فهمى جار الله بإبراهيم ولم يؤنبه إلا بكلمة عتاب قصيرة ثم بدأ يحدثه عن أحوال البلد بعيدا عن موضوع الزواج .. وكيف أن الثورة اضطرت أن تعتقل عددا كبيرا من الناس لا لحماية الثورة فحسب ولكن لحماية الأخلاق .. لم تعد السياسة هى كل شىء يا ابنى يا إبراهيم .. الأخلاق أهم من السياسة والثورة مسئولة عن الأخلاق وخصوصا أخلاق الشبان .. وأهم من فى الشبان هم شبان نادى الجزيرة .. إن هذا النادى ضحية السمعة القديمة .. كان ليس فيه إلا أولاد الباشوات وأولاد الإنجليز مع أن فيه شبانا صالحين مثلك يا ابنى يا إبراهيم .. ورغم ذلك فالثورة مصممة على تطهير النادى وتفكر فى تجنيد كل الشبان هناك حتى الذين لا ينطبق عليهم قانون التجنيد .

وإبراهيم .. بوبس .. يسمع هذا الكلام فى كل مرة يجلس فيها مع فهمى ويبتلع ريقه حتى يخفى رعشته .. إنه يحس بمصيره فى هذا الكلام .. إلى أن بدأ يهرب من لقاء فهمى .. لا يريد أن يراه .

وطلبت هاجر من أمها خمسمائة جنيه لتشترى ثياب العرس.. لقد قررت أن تقيم حفلاً تعلن فيه زواجها .

وابتسمت زينب وقالت فى فرحة مفتعلة :

– حاضر يا ابنتى .. سأقول لعمك فهمى .

واتسعت عينا هاجر دهشة وقالت :

– ما دخل أونكل فهمى فيما أريد .

وقالت زينب فى بساطة :

– لقد نسيت أن أقول لك .. لقد كتبت له توكيلا باسمنا جميعا .

وصرخت هاجر :

مالى أنا وهذا التوكيل .. إنها أموالى أنا .

وقالت زينب فى هدوء :

– طبعا أموالك يا ابنتى وأموالى أيضا ولكن عمك فهمى استطاع أن يحل لنا كل المشاكل .. إن كل مسئوليته هو مراجعة المسئولين ومراجعة الحسابات .. ألم ترى ما فعله فى المنصورية .. إن الحكومة هى التى تنزعها الآن .. كل هذا بفضله .

ولم تستطع هاجر أن تتخلص من عرض مطالبها على زوج أمها العميد فهمى جار الله .. وقد قال فهمى يومها :

– اطمئنى إن جمعية الضباط ستشترى لك كل شىء حتى لو أردت أن تشتريه من باريس أو لندن .

ثم حدث بعد ذلك أن اختار إبراهيم شقة واقنع هاجر بأن يستأجراها ليقيما فيها .. إنه لا يستطيع أن يعيش مع أمها وزوجها ولا يمكنه أن يعيش بها مع عائلته .. واقتنعت هاجر .. ولكن العميد فهمى جار الله صاح فى فرح :

– لقد كنت أفكر لكما دائما .. وقد وجدت شقة من شقق الحراسة .. فى الزمالك .. ست حجرات .

ولم يستطع إبراهيم أن يعترض حتى عندما اكتشف أن الشقة قد كتبت باسم حماته زينب لا باسمه ولا باسم زوجته هاجر كما كان يريد .

حتى عندما بدأ فى تجهيز الشقة .. إن « أونكل فهمى » يرى الاكتفاء بشراء حجرة نوم وملء الحجرات الباقية بقطع من الأثاث القديم .. إن قصر المنصورية فيه كثير من قطع الأثاث و .. و .. « أونكل فهمى » قد خصص مصروفا لهاجر ماله

جنيه فى الشهر . ماذا تكفى مائة جنيه .. إن « بوبس » يلعب البلياردو بمائة جنيه فى اليوم .

ولم يعد إبراهيم يطيق .. وهو يعيش فى خوف من العميد فهمى جار الله .. حتى عندما فكر فى أن يطلب رفع الوصاية عن زوجته .. وصاية أمها .. لم يستطع خوفا من أونكل فهمى.. وبدأ يهرب من هاجر .. إنه مضطر أن يعود كما كان يسلب أموال البنات والنساء العواجيز .. وبدأت هاجر تشكو .. وتبكى لأمها .

إن الخطة نجحت .

ستعود إليها ابنتها هاجر قريبا .

ولكن المشكلة الجديدة التى بدأت تواجهها هى مشكلة ابنتها ياسمين .

إن ياسمين لا تستطيع أن تتحرر من الخوف ولا من القرف.

والأيام تمر ..

ولم تعد هاجر مشكلة بالنسبة لأمها زينب .. أصبحت واثقة أنها ستطلقها من زوجها بوبس .. ولكن المشكلة أصبحت مشكلة ابنتها ياسمين ..

إن ياسمين أصبحت لغزا بالنسبة لأمها .. أنها منذ افتتحت البوتيك مع صديقتها خديجة وهى تزداد ابتعادا عنها . وتزداد صمتا .. وأمها تحس أن وراء صمتها أسرارا مهمة كأنها أسرار حياة جديدة بعيدة تعيشها ياسمين .. أسرار تبدو فى لمعة غريبة أصبحت تبرق فى عينيها وفى ومضة ذكاء تبدو على جبينها كأنها أصبحت فى حاجة إلى كل ذكائها ليعمل طول يومها داخل الحياة الجديدة التى تعيشها .. وياسمين لم تكن أبدا غبية ولكنها لم تكن أبدا فى حاجة إلى أن ترتفع بذكائها إلى حدود الخبث .. أن أمها أصبحت كأنها تختار كل كلمة قبل أن تنطقها حتى عندما تتكلم معها .

ولا شك أن «البوتيك» يحقق أرباحا .. ولا تدرى زينب كم يحقق من أرباح كل ما قدرته أن ابنتها لم تعد تطلب منها شيئا.. ولا مليم .. أصبحت ياسمين هى المسئولة عن نفسها

وعن ولديها وعن زوجها وعن بيتها .. واستطاعت أن ترتفع بهذه المسئولية إلى مستوى الرخاء .. وقد فكرت زينب أن تحاسب ابنتها على هذه الأرباح فهى صاحبة رأس المال .. هى التى دفعت نصيب ياسمين عند تأسيس «البوتيك» .. ولكن زينب فضلت أن تترك كل شىء لابنتها .. إنها تريد أن تشعر بها كشخصية قائمة بذاتها لا تحتاج إليها .. شخصية تعتمد على نفسها ولو أنها تعيش معتمدة على صديقتها خديجة وفى حمايتها .. وابتسمت زينب بينها وبين نفسها .. أنها تعتمد لحماية نفسها على رجل .. دائما رجل .. ولكن ابنتها اختارت أن تعتمد على امرأة .

وبدأت زينب تتعجب .. أن أهم زبائن البوتيك أصبحن من سيدات البترول .. من أغنى وأهم سيدات البترول .. الشيخة فلانة .. والأميرة علانة .. كثيرات منهن وكلهن فى السن التى تتعدى مطالب الشباب إلى مطالب العجوزات .. ولم تعد ياسمين وخديجة تكتفيان باستقبال زبائنهن الجدد فى محل الأزياء بل أصبحتا صديقتين لهن خارج المحل .. إن ياسمين تسهر كل ليلة فى جناح الواحدة منهن فى فندق هيلتون أو فندق شيراتون .. وخديجة تقيم بين كل ليلة وأخرى حفلة صاخبة فى بيتها تدعو إليها نساء البترول وتدعو معهن نوعا معروفا من النساء .. كلهن نساء فى نساء .

وبدأت زينب تسمع من صديقتها نادية كلاما كثيرا يقال عن ابنتها وعلاقتها بخديجة ثم علاقة الاثنتين بنساء البترول ..

يقال عنهما أنهما أصبحتا محترفات لمتعة المرأة بالمرأة .. أنهما يبعين المتعة للنساء بعد أن عاشتا منذ لقائهما يحتفظان بالمتعة لهما وحدهما .



وهزت زينب كتفيها بلا مبالاة .. لا يهم .. ولكنها لم تستطع أن تسكت طويلا .. أنها لا تخاف على ابنتها مما تفعل ولكنها تخاف عليها من كلام الناس .. وسألتها .

– هل هذا صحيح

ورفعت ياسمين حاجبيها فى دهشة وقالت :

– وماذا فيها لو كان هذا صحيحا .

وقالت الأم فى غضب :

– فيها كلام الناس ..

وقالت ياسمين بلا مبالاة :

– وهل يسكت الناس لو رافقت رجلا بدلا من امرأة ..

وقالت الأم وصوتها يرتفع كأنها تضرب به ابنتها :

– إن مرافقة الرجل وضع طبيعى أما مرافقة امرأة فهذا ما يسمونه بالشذوذ .. لا أريد أن يقال عنك إنك امرأة شاذة ..

وقالت ياسمين كأنها تدافع عن أعز ما فى حياتها :

– إن مرافقة المرأة هو الوضع الطبيعى .. امرأة وامرأة .. ليس المفروض أن يكون بينهما شىء لذلك لا يختبئان .. ولا يخافان الظهور أمام الناس .. ولا يطالبهما أحد بتطبيق حكم الشرع والزواج .. وحتى لو كان بينهما شىء فهو شىء أنظف مما بين المرأة والرجل .. على الأقل لا يدخل بطنى غريب ليسكب فيه قذارته .. حتى الشرع .. أن ما بين المرأة والمرأة لا يعتبر جريمة زنا كما يعتبر ما بين المرأة والرجل ..

وابتسمت ياسمين بينها وبين نفسها عندما تذكرت ما حدث لها منذ بضعة أسابيع .. لقد جاءتها الشيخة فريدة .. فجأة إلى البيت .. وكانت سكرانة كعادتها رغم أن الساعة لم تكن قد جاوزت التاسعة مساء .. ورحبت بها ياسمين .. إنها أكرم صديقات البترول .. وكانت تعرف ما تريد .. فأخذتها فورا إلى حجرة النوم واحتضنتها فوق الفراش .. وفجأة عاد

زوجها .. أن زوجها عزيز رغم تفاهته إلا أنه لا يزال يعتبر نفسه ابن الباشا القديم وتثور فى نفسه أحيانا سخافات الدفاع عن الشرف والكرامة .. وفتح حجرة النوم كأنه يفتح عكا بعد أن سمع أصواتا تنطلق منها .. ورأى جسدا فى أحضان جسد زوجته .. ولكنها الشيخة فريدة .. وابتسم زوجها عزيز كأنه اطمأن على شرفه وكرامته واعتذر بسرعة ثم خرج وأغلق الباب وراءه .. وقالت له ياسمين بعدها إن الشيخة جاءت متعبة فكانت تريحها وتدلك لها عضلاتها ..

ونظرت الأم إلى ابنتها فى استسلام كأنها رضت بالمقدر وقالت :

– سمعت أنك تتلقين كثيرا من الهدايا من صديقاتك ..

وقالت ياسمين بلا فرحة :

– كثيرا ..

وقالت الأم فى عتاب :

إنك لم تخبرينى عن هذه الهدايا .

وقالت ياسمين فى برود :

– لأنك لم تسالينى .. وأعتقد أن كثيرا مما ترينه فىّ تعرفين أنه هدية دون أن أقول لك ..

وقالت الأم وهى تبتسم كأنها ترجوها .

– ولكنى لا أعرف كل شىء .. حدثينى ماذا وصل إليك ..

قالت ياسمين فى سخط :

– حتى لو كان قد وصل إلى الملايين .. ماذا كنت أفعل بها

في البلد المعتم المقفول الذى لا يبيح شيئا لكل من يقيم فيه .. كل شيء في مصر محرم .. كل شيء تنقض عليه الحكومة وتستولى عليه وعلى صاحبه .. إن عندى هدية فص من الماس حجمه قيراطان .. هل استطيع أن أضعه في أصبعي أو أعلقه على صدرى وأبدو به أمام الناس وأمتع به نفسي .. تبقى مصيبة .. إنى أخفيه حتى عنك .. أصبحت أخاف حتى منك .. من أمى .. هل تعرفين السيارة الفولكس واجن التى أركبها .. أنها هدية .. وكان ممكن أن تكون سيارة مرسيدس أو كاديلاك ولكنى أنا التى طلبت من الشيخة فريدة أن تكون هديتها فلوكس صغيرة .. هل كان يمكن أن أجرى في شوارع هذا البلد بسيارة كاديلاك .. كنت الآن في السجن أو ربما كانوا قتلونى ..

وقالت الأم تحاول أن تخفف من ثورة ابنتها :

– ليس إلى هذا الحد يا ياسمين .. والحياة ليست فصوصا من الماس وسيارات كاديلاك .. الحياة هى ألا تعيشى في حاجة .. ونحن والحمد لله لسنا في حاجة إلى أحد ..

وقالت ياسمين وهى أشد سخطا :

– أنت في حاجة دائما إلى حماية .. وقد تزوجت ضابط الجيش ليحميك .. أننا نعيش في خوف وأنا لا أفكر فيمن يحمينى ولكنى أفكر في الهرب .. الهرب من الخوف .. أن الحياة نجاح .. فهل يمكن أن ننجح هنا .. انى أحلم بأن يكون لى متجر كبير كشيكوريل .. إن شيكوريل يهودى وأنا يهودية.. أستطيع ان أنجح كما نجح .. لماذا لا أجمع صديقات

البترول وأقيم بملايينهن شركة كبيرة ومتجرا فخما أكبر من متجر شيكوريل وصيدناوى وجاتينيو .. متجرا أسميه ياسمين.. هل أستطيع .. طبعا لا .. كان اليهود أيام شيكوريل يعيشون في مصر حياة غير هذه الحياة .. وحتى لو لم نكن يهودا .. أن النجاح ممنوع في هذا البلد ..

وقالت الأم وهى تنظر إلى ياسمين في دهشة :

الحياة ذكاء .. وتذكرى أننا نجحنا بذكائنا . كيف كنا أيام حى الظاهر وكيف نحن الآن .. وقد فرضت عليك وعلى زوجك الحراسة وأخذ منكم كل ما تملكون ورغم ذلك استطعت بذكائك أن تشترى وتفتحى البوتيك وتعيشى غير محتاجة .. انت ذكية مثل أمك .. لم أكن أتصور أنك في مستوى ذكائى..

وقالت ياسمين كأنها تبصق كلماتها في قرف :

– لو كنا في بلد آخر لاستطاع ذكاؤك أن يصنع الأعاجيب بنجاح .. ولكن هنا ما أصنع بذكائى وذكائك غير استمرار الحياة . لقد فكرت أنا وخديجة أن نقيم بوتيك آخر ولكننا عدلنا عن الفكرة . خفنا .. الخوف هنا يغلب الذكاء .. والذكى هو من يحمل ذكاءه ويذهب به إلى بلد آخر .

وأمها تسمعها ودهشتها تشتد .. أن ياسمين لم تكن أبدا في مثل هذه الثورة .. وهذا السخط .. وهذا الخوف .. بل أنها لم تكن من قبل تتذكر أنها يهودية .. أنها الآن تعلن لنفسها انها يهودية .. وتفكر كيهودية .. وتتكلم كيهودية .. انها تذكرها بأخيها ايزاك .. لقد كان ثائرا مثلها .. وكان لا يريد أن ينسى أنه يهودى ..

والأيام تمر ..

وفوجئت زينب بابنتها ياسمين تريد السفر إلى باريس ،

وانطلقت صرخة فى صدر الأم ..

هل قررت ابنتها أن تهاجر إلى إسرائيل هى الأخرى ..

لا .. لا يمكن ..

إنها ستسافر مع صديقتها خديجة ..

وهى ستترك لها ولديها .

وهى تريد من زوجها العميد فهمى جار الله أن يسهل لها هى وخديجة الحصول على إذن بالسفر .

وحاولت زينب أن تقنع نفسها بأن ابنتها تريد أن تسافر مع صديقتها فقط لمتعة السفر .. وهما مدعوتان هناك من صديقات البترول .. وقد تعودان ببضائع غالية تبيعانها فى «البوتيك» .

إنها تستطيع أن تسلط زوجها فيحرم ابنتها من السفر حتى تطمئن .. ولكن لا .. ربما لجأت ياسمين إلى طريقة أخرى لتسافر .. من الأفضل أن تأخذها بالهدوء .. أن تريحها .. أن تقنعها بأنها تستطيع أن تسافر حتى تطمئن إلى أنها ستعود .

وسافرت ياسمين مع خديجة إلى باريس ..

وبدأت زينب تعانى وحشة قاسية بعد سفر ابنتها ياسمين .. أنها المرة الأولى التى تصبح فيها ابنتها أبعد من يديها .. حتى فى الفترات التى كانت ياسمين تعزل فيها نفسها كانت أمها تحس أنها معها .. قريبة منها .. تستطيع أن تجدها

عندما تريدها .. وابتسمت زينب ابتسامة مسكينة عندما تذكرت أنها هى نفسها كانت تشجع عزلة ابنتها ياسمين بعيدا عنها فقد كانت تغار منها على زوجها فهمى .. أن ياسمين تحتفظ بشباب وأنوثة تغرى أى رجل حتى لو كان زوجها .. انه ضابط جيش .. وضباط الجيش يهوون الاستيلاء .. أن مهمتهم الاستيلاء .. حتى لو استولى على ابنتها .

وابتلعت زينب ابتسامتها وعادت تعيش الوحشة .. وهى وحشة ينبض فيها الخوف من المجهول .. الخوف من الا تعود ابنتها .. أن تهاجر وتختفى إلى الأبد كما أختفى ابنها ايزاك .. وهى تحاول أن تتغلب على الوحشة والخوف بأن تحيط نفسها بولدى ياسمين سامى وفريد .. أن كلا منهما أخذ كل ملامح أمه العينين والأنف والأذنين والشفتين .. كل ملامح اليهود .. ترى هل يعلمان أن أمهما يهودية .. أن سامى الآن فى العاشرة وفريد فى الثامنة .. هل قالت لهما أمهما شيئا .. هل سمعا شيئا فى المدرسة كما سمعت هاجر عندما كانت صغيرة .. لا تظن .

ولكن ولدى ياسمين لم يخففا عن زينب الوحشة إليها .. ولا حتى ابنتها هاجر .. إنها تحس دائما بأن ياسمين أقرب إليها من هاجر .. كان ياسمين كلها منها ولكن هاجر تحمل دما غريبا عنها .. فيها خطوط ليست منها .

وكانت هاجر قد تركت زوجها بوبس وعادت إلى أمها .

إنها تريد الطلاق .. لم تعد تحتمله .

وبوبس أو إبراهيم لا يريد أن يطلق .. أنه وقح إلى حد أنه

لا يريد أيضا أن يترك الشقة التى يقيم فيها رغم أنه يعلم أن الإيجار باسم حماته زينب .

وتدخل زوجها العميد فهمى جار الله .. ولكن إبراهيم يهرب منه .. وعندما يجده يكذب عليه .. أنه لا يريد الطلاق .. ويريد أن يأخذ الثمن كما أخذ زوجها الأول زكى ثمن الطلاق من زوجها الثانى شوكت ذو الفقار أبو هاجر .

والعميد فهمى لا يوافق على دفع أى قرش لإبراهيم .. وهو ضابط من أصحاب النفوذ . وله أصدقاء من رجال المخابرات وضباط البوليس الحربى .

وقبض على إبراهيم سلامة ..

ووضع فى السجن الحربى ..

ولم يقع عليه أى تعذيب ولكنه ترك ليعرف أنه سيبقى سجينا إلى أن يطلق زوجته هاجر .. وقال له قائد السجن وهو يستمع إلى شكواه :

- إن الثورة تحمل مسئولية الأخلاق .. أخلاق الشبان أمثالك .. وأنت معروف عنك أنك بلا أخلاق والتقارير المقدمة عنك تكفى للحكم عليك بالاعدام حتى نطهر البلد منك .نطهر نادى الجزيرة .. ولكن يكفينا الآن أن نطهر منك البنت المسكينة التى وقعت فى حبائلك وتزوجتها .

وجاء العميد فهمى إليه فى السجن الحربى .. وجاءوا بالمأذون إلى داخل السجن ووقع إبراهيم سلامة ورقة

الطلاق .. ثم صحبه العميد فهمى إلى الشقة التى كان قد استأجرها باسم زينب .. وتركه يجمع حاجياته ثم أخذ منه المفتاح وتركه حرا ..

وانتهت الثورة من مهمتها ..

وزينب سعيدة لأنها استطاعت أن تحمى نفسها وتحمى ابنتها من خطر سفالة إبراهيم سلامة .. سعيدة لأنها تضع بجانبها الرجل القوى الذى يستطيع أن يحميها ..

وهاجر أصبحت بعد الطلاق أكثر إنطواء وأكثر عزلة عن أمها .. بل وعن أصدقائها أيضا .. لم تعد تذهب إلى النادى .. ولا تختلط بالشلة القديمة .. كانت تعانى احساسا بالصدمة والفشل . وكانت أحيانا تبدو كأنها تحمل أمها مسئولية هذه الصدمة وهذا الفشل .. من يدرى .. وربما أنها أوقعت نفسها فى إبراهيم سلامة لمجرد أن تتحرر من أمها .. أمها اليهودية .. إن إحساسها بأن الناس كلها تعرف أن أمها كانت يهودية يدفعها إلى الهرب من أمها .. وأحيانا الانتقام من أمها .. ولم تكن تستريح إلا فى بيت أخيها شريف .. وكانت دائما هناك .. وكأنها تهرب إلى أبيها بعيدا عن أمها .. تهرب إلى الجانب النظيف من حياتها ..

وزينب تعانى الوحدة أيضا .

ابنتها ياسمين فى باريس ..

وابنتها هاجر هاربة منها ..

وزوجها فهمي لا تراه إلا يومين فى الأسبوع .. الأحد والأربعاء .. وبقية الأيام مع زوجته الأولى زوجته الشرعية .. زوجته الكاملة وأولاده .

وسامي وفريد يذكرانها دائما بأمها فتزداد بها معاناة الوحشة والخوف ..

متى تعود ياسمين .. لقد قالت أنها ستغيب شهرا وقد مضى الشهر .. وأصبحت زينب تعاني الخوف أكثر مما تعاني الوحشة .. الخوف ألا تعود ابنتها .. ولكنها أخيرا عادت هي وخديجة .. عادت وهي تحمل هدايا غالية للجميع .. وبضائع نادرة لتبيعها فى البوتيك .. وكان العميد فهمي جار الله فى انتظارها فى المطار ورجال الجمرك فى خدمته .

وقد عادت ياسمين وشيء جديد يبدو عليها .. كأنها اكتسبت شخصية جديدة .. كأنها أصبحت أقوى .. وأمها زينب تحملق فيها وتحس كأن ابنتها تحمل سرا .. ولكن ياسمين لا تفصح عن أسرار .. أن كل حديثها عن باريس وأزياء باريس وملاهي باريس ..

وأمها تحاول أن تجرها لتكشف عن سرها .. أنه لا شك سر يتعلق بأصلها .. وكانت تسألها :

– هل التقيت براشيل زوجة فريد كوهين .. سمعت أنها تقيم فى باريس ..

وترد ياسمين بلا مبالاة ..

– لا ..

وتعود الأم تسأل :

– هل سألت عن محل كليمان ناحوم الذى كان جارنا فى الظاهر .. يقال أن له معرضا كبيرا فى باريس ..

وترد ياسمين باستخفاف :

– يا ماما لقد كنا طوال اليوم أنا وخديجة نطوف الشوارع وفى المساء مع صديقاتنا العربيات .. لم يكن يهمنا أن نعرف أحدا أو نبحث عن أحد .

وفشلت زينب أن تجر ابنتها عن الحديث عن اليهود وكأن ليس فى باريس كلها ولا يهودى .. ولكنها متأكدة أن ياسمين تخفي عنها سرا ..



والأيام تمر

وفوجئت زينب بأن ابنتها هاجر قد قررت الزواج مرة أخرى .. وكان الزوج قد اختاره لها أخوها شريف وقد اختاره شريف دون أن يستشيرها ووافقت هاجر دون أن تأخذ رأيها .. كأنها ليست موجودة .. كأنها ليست أمها .. لا يهم .. لتحتمل هذه الشخصية المتعبة .. شخصية ابنتها هاجر .. المهم أن الزوج شاب كامل .. أنه مستشار فى وزارة الخارجية ويعمل بسفارة مصر فى باماكو .. عاصمة مالي بافريقيا .. وأبوه صديق لشريف وكان فى أجازة عندما التقى بهاجر .. ولم تحدث قصة حب .. أنما مجرد اعجاب .. وربما كان اعجابه بها أكثر من اعجابها به .. ولكنها تتزوج لتنسى . تنسى كل شيء حتى نفسها .. وتخيلت أن سفرها بعيدا عن مصر وإلى

غابات أفريقيا يمكن أن ينسيها .

ووافقت زينب على الزواج .. ليس من حقها أن ترفض وحتى لو كان من حقها فهى لا تستطيع .. والشىء الوحيد الذى صممت عليه هو أن يقام الزفاف فى حفل كبير .. فى الهيلتون .. ويدعى إليه كل الناس .. وهى مستعدة أن تساهم فى التكاليف لو أراد أهل العريس . وحاولوا أن يقنعوها بأن العريس على عجل لانه يجب أن يسافر بعروسه إلى مكان عمله.. لا وقت للاستعداد وتوجيه الدعوات .. وحاولوا أن يقنعوها بانه الزواج الثانى لهاجر وفى العادة لا تقام الحفلات للمطلقات .. ولكنها صممت .. وألحت على هاجر حتى تصمم معها .

وقد صممت زينب على إقامة الحفل لانه خيل إليها أنها بهذا الحفل تستطيع أن تحل عقدة ابنتها .. تستطيع أن تحررها من النقص الذى تحس به .. تريد أن تشعرها بأن المجتمع كله يفرح بها والناس كلهم يتشرفون بها رغم أن أمها يهودية ورغم أنها صدمت فى زواجها الأول .

واقيم الحفل الكبير فى فندق الهيلتون ..

ودعا أخوة هاجر من أبيها كل أصدقائهم .. أصدقاء العائلات القديمة .. عائلات ما قبل الثورة .. ودعا العريس كل أصدقائه ورؤسائه وزملائه فى وزارة الخارجية .. ودعا أبوه العشرات .. وتعمدت هاجر أن تدعو صديقات وأصدقاء نادى الجزيرة وقد كبروا وأصبحوا شيئا آخر لتتباهى أمامهم بأنها تحدت نكبتها بإبراهيم سلامة وعادت إلى الحياة .. وياسمين

دعت عشيقاتها من نساء البترول الموجودات فى مصر .. كان شيئا مشرفا للعائلة أن تكون من بين المدعوات الشيخة فلانة أو الأميرة فلانة .. ودعت كثيرات من زبائن البوتيك .. وصديقتها خديجة تضع لها لائحة المدعوات والمدعوين .

ولكن العميد فهمى جارالله اعتذر عن دعوة أحد من الرسميين .. أنه رغم أنه لا ينكر زواجه بزينب إلا أنه لا يعلنه.. فلا يستطيع أن يدعو إلى فرح ابنتها .. واكتفى بدعوة ثلاثة من أصدقائه الذين يعرفون سره .. سر الزواج العرفى ..

وهى .. زينب .. لقد فوجئت أن ليس لها صديقات سوى نادية وسارة .. ولا تريد أن تدعو سارة حتى لا تذكر الناس بأنها يهودية .. تكفى نادية .. أنها منذ مات زوجها ذو الفقار وهى تشغل نفسها بنفسها .. لم تكن تعرف إلا من تحتاج إليه.. المحامى .. مدير البنك .. المهندس الزراعى .. أو من تريده .. ودعت من تحتاج إليه .. وطبعا لم تكن تستطيع أن تدعو ذكرياتها التى يمثلها من ارادتهم ..

وجلست فى الحفل بعيدا .. أن تسعين فى المائة من المدعوين لا تعرفهم ولا يعرفونها .. وهى سعيدة .. لقد قبلت أن تدفع نفقات كل هذا الحفل حتى تسعد ابنتها .. أو حتى تعتذر لها عن العقدة التى سببتها لها .. وهى ترى ابنتها سعيدة .. تراها جالسة فى الكوشة .. مرفوعة الرأس .. متباهية بجمال العروس .. كأنها استردت كل شخصيتها .

ولكن هاجر سافرت مع زوجها فى اليوم التالى لحفل الزفاف ..

ولا تدرى زينب لماذا خافت عندما سافرت هاجر كما خافت عندما سافرت ياسمين .. خافت ألا تعود ليس هناك أى سبب يدعو هاجر إلى الهجرة إلى إسرائيل .. أن هاجر لم تكن أبدا يهودية ولا تحس أنها كانت يهودية .. بل تحس العكس .. تحس أنها تعيش وهى تبرىء نفسها من أن لها أما كانت يهودية .. ورغم ذلك فزينب خائفة .. لا تستطيع أن تطمئن إلى أن ابنتها سافرت لمجرد صحبة زوجها كما تسافر كل الزوجات وخصوصا زوجات رجال السلك الدبلوماسى .. ربما كانت زينب مصابة بعقدة يهودية فاليهودى عندما يسافر لا يطمئن هو نفسه إلى أنه سيعود ..

ثم أن زينب بدأت تحس بلوعة الوحشة لهاجر .. لم تكن تعتقد أنها مرتبطة عاطفيا بهاجر إلى هذا الحد . عاطفة الأم .. أنها بدأت تتمناها بجانبها رغم كل مشاكلها وكل عقدها النفسية .. أن هذه المشاكل والعقد كانت تملأ عليها حياتها .. تملأ وقتها وتملأ عقلها وتملأ قلبها .

وهذا الاحساس بالوحشة لهاجر بدأ يشعل من احساسها بالوحدة .. لم يعد بجانبها إلا ابنتها ياسمين .. ولكن ياسمين تعيش بعيدة عنها وتعطى أيامها كلها «للبوتيك» ولعشيقاتها نساء البترول .. وقد يمر أسبوع وأسبوعان دون أن تراها .. وتتعب لتتصل بها فى التليفون .. يا ابنتى .. لا تتركينى هكذا.. إنى وصلت إلى سن احتاج فيها إليك .. على الأقل تعالى لتطمئنى علىّ وأطمئن عليك .. واسمع أخبارك وتسمعى أخبارى .. لنحدد يوما فى الأسبوع لأجتماع العائلة .. تأتين

إلىّ لتناول الغداء .. أنت وعزيز بك زوجك وسامى وفريد .. ليكن يوم الجمعة من كل أسبوع .. قد كانت زينب تتمنى أن ترى ابنتها كل يوم وأى يوم ما عدا يومى الأحد والأربعاء .. أنهما يوما زوجها فهمى جار الله وتحرص فيهما أن تكون له وحده لتأخذه كله وتعطيه كلها ولا يشغلها عنه حتى أولادها ..

ووافقت ياسمين رحمة بأمها .. لا .. ليس الرحمة فحسب انها أيضا تحبها وتحب أن تراها فى كل يوم ولكن الحياة تبعد بها عنها .. وابتسمت ياسمين بينها وبين نفسها .. أنها نجحت كما نجحت أمها .. وإن كان النجاح أخذها بعيدا عنها ..

وتحدد يوم الجمعة من كل أسبوع للغداء العائلى .. ولكن ياسمين لم تكن تصحب معها زوجها عزيز فهى تحتقره إلى حد لا تريد أن تضعه فى أى وضع عائلى .. ولكنها كانت تصحب معها دائما صديقتها خديجة كأن خديجة أصبحت قطعة منها لا تستطيع أن تستغنى عنها حتى وهى مع أمها .. والأم تكاد أن تجن كلما رأت خديجة .. إنها تحس بها كحائط يفصل بينها وبين ابنتها .. تحس وهى تنقل عينيها بين الأثنتين كأنها تتطلع إلى عالم غريب مخيف .. عالم كله أسرار .. وخديجة تبذل جهدا كبيرا فى التقرب إلى زينب على الأقل خلال الفترة التى تقضيها معها .. ولكنها تحس أن زينب لا تطيقها وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تترك ياسمين لأمها.

إلى أن صدمت زينب صدمة جديدة ..

أن ياسمين تريد السفر إلى باريس مرة أخرى .. مع خديجة أيضا .. ولكنها فى هذه المرة تريد أن تصحب معها ولديها ..

وصرخت زينب فى وجه ابنتها :

– إنك كنت هناك منذ قليل من عام ..

وقالت ياسمين فى هدوء :

– إنى اتمنى أن أسافر إلى هناك كل يوم ..

وعادت الأم تصرخ

– ولماذا .. ماذا لك فى باريس .. ماذا تخفين عنى ..

وقالت ياسمين بلا مبالاة :

– يا ماما أن الناس فى كل الدنيا تسافر لمجرد السفر .. أن السفر إلى باريس أو روما أو لندن أصبح كالذهاب إلى خان الخليلى أو الهرم .. ليس هناك بلد فى العالم يحرم الناس فيه من السفر إلا هذا البلد .. ممنوع على الإنسان أن يسافر إلا بموافقة الجيش المصرى .. والحمد لله الجيش معنا فى البيت .. والبركة فى عمى فهمى وفيك يا أمى ..

والأم تنظر إليها كأنها تختنقها بعينيها وقالت كأنها تهم بصفعها :

– ولماذا تريدين ولديك معك ..

وقالت ياسمين وهى تبتسم لها لعلها تهدأ :

– لأمتعهما بالسفر .. حرام أن احرمهما من التمتع بالعالم مادمت استطيع أن امتعهما .. وأكثر من ذلك .. انى افكر أن الحقهما بمدارس هناك .. أنهما ولداك وولداى ويجب أن نبنى

لهما المستقبل .. وأنا غنية استطيع أن اقدم لهما كل شىء ..

وضغطت الأم على أعصابها وقالت وهى تحاول الهدوء :

– ياسمين .. قولى لى كل شىء ..

وقالت ياسمين وهى تدعى الدهشة :

– أى شىء تقصدين ؟

وقالت الأم كأنها تتوسل :

– أنك تخفين عنى سرا ..

وقالت ياسمين وهى تحاول ألا تلتقى بعينى أمها :

– ليس هناك سر أخفيه .. أنك تعرفين كل شىء .. أنى فقط لا أقول لك كم ادخرت لأنك لست فى حاجة لتعرفى ولا أنا فى حاجة لأن أقول لك ..

وقالت الأم فى اصرار :

– لا .. هناك سر آخر .. أنك تنوين شيئا لا أدريه .. وبصراحة أنى أخاف أن تسافرى ولا تعودى .. أن أخاك ايزاك عندما قرر إلا يعود قال لى قبل أن يسافر .. قولى لى

واقتربت ياسمين من أمها وقبلتها وقالت ضاحكة :

– سواء عدت أم لم أعد فاهم شىء أنى مطمئنة دائما عليك .. ثم لماذا لا أعود مادمت استطيع أن اسافر كلما أردت ، أنك لا تعلمين كم كسبنا فى رحلتنا السابقة إلى باريس ..

وقالت الأم فى تهديد :

– أنت تعلمين أنى أستطيع أن أطلب من فهمى أن يمنعك من السفر ..

وقالت ياسمين وكأنها تهم بالبكاء :

– ولكنك لن تطلبى منه .. أنت أمى ..

ولم تحاول الأم أن تمنع ابنتها من السفر .. لا تستطيع أن تحرمها من نجاحها .. أنها تؤمن بأن النجاح هو الحياة فكأنها ستحرم ابنتها من الحياة .

وسافرت ياسمين ومعها والداها .. وخديجة ..

وعاشت زينب تعانى الوحشة والخوف وقد أصبحت كلها وحدها .. لا يشغل وحدتها إلا السر الذى تخفيه عنها ياسمين .. أنها متأكدة أنها تخفى سرا ..

وتلقت منها خطابا .. ليس فيه شىء يمكن أن يريحها .. ولا شىء يمكن أن يعذبها .. وقبل أن يصلها خطاب ثان انطلقت حرب ٦٧ ..

وسقطت تبكى .. طول يومها وكل أيامها بكاء .. لا تستطيع أن توقف دموعها ولا تدرى لماذا كل هذا البكاء .

١١

كان السر الذى تخفيه ياسمين والذى كانت أمها تراه بإحساسها هو أنها قررت فعلا الهجرة من مصر .. لم يكن دافعها الى الهجرة هو إحساسها بأصلها اليهودى أو إيمانها بالعودة .. أى العودة إلى إسرائيل . كان دافعها الوحيد هو أنها ضاقت بهذا البلد . وكان نجاحها مع صديقتها خديجة فى « البوتيك » وفى تجارة العشق مع نساء البترول قد حقق لها أرباحا ضخمة وفتح أمامها مجالات واسعة للطموح فى الوصول إلى أكثر وأكثر حتى تصل إلى مستوى عباقرة اليهود الذين يمسكون بكل الخيوط التى تحرك كل أموال العالم .. كيف تستطيع أن تحقق هذا الطموح فى مصر .. مستحيل .. إنها هنا تعيش فى خوف كل الناس يعيشون فى خوف وهى لأنها تحس بعقدة أصلها اليهودى تعيش فى خوف أكثر . وكل شىء تصنعه يتم فى السر .. حتى أحلامها تخاف أن يكشفها أحد وتتهم بها .. لمجرد أنها تحلم .. وكل قرش تكسبه تخفيه فى السر .. تخاف أن تضعه فى بنك حتى لا يؤخذ منها . لا .. لا يمكن .. الأمل الوحيد هو أن تترك هذا البلد وتحمل رأسمالها إلى بلد آخر ..

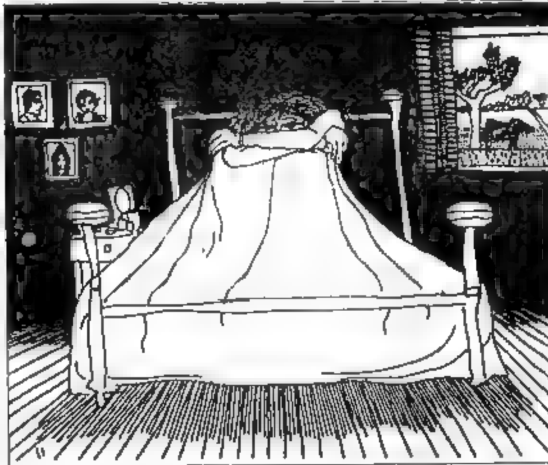
ولكن .. إنها لا تستطيع أن يكون لها أى حق فى أى بلد آخر إلا إذا كانت يهودية .. إن اليهود .. يجدون أنفسهم فى أى بلد .. بسيطة .. لتعد كما كانت يهودية . أى بلد تختار .. باريس .. وتصبح يهودية فرنسية .. إنهم لا يقولون فرنسى يهودى ولكنهم يعكسونها ويقولون يهودى فرنسى .. اليهودى هو الأصل .. وهى تعرف أن المجتمع اليهودى فى فرنسا مجتمع قوى وله نفوذ وله سيطرة ..

وفى باريس جمعية يهودية تستقبل اليهود الوافدين ليعيشوا فى حمايتها وتوفر احتياجاتهم .. وسيوفرون لها الإقامة فى باريس إلى أن تحصل على الجنسية الفرنسية .. وحتى إذا لم تحصل على الجنسية الفرنسية فإنها تستطيع أن تحصل على الجنسية الإسرائيلية وتعيش فى باريس بجواز سفر إسرائيلى ..

وتفتح فى باريس محلات لبيع احتياجات المرأة كمقدمة لمشاريع كبيرة وتجمع حولها هناك عشيقاتها نساء البترول .. انهن فى باريس يصبحن أكثر انبهارا .. وأكثر حرية .. وأكثر كرما .. ويصبحن أسهل فى اللعب بعقولهن .. إنها تستطيع أن تجمع منهن ملايين الدولارات وتقيم الشركة الكبيرة التى تعيد تحقيق خيالها بالوصول إلى مجد شيكوريل أيام زمان ..

وقبل أن تسافر إلى باريس لأول مرة استطاعت أن تجمع كل الأوراق القديمة التى تثبت أنها يهودية حتى كتب وكراسات المدرسة اليهودية التى كانت طالبة فيها .. وأكثر من ذلك ..

استطاعت أن تقابل فى السر حاخام اليهود الذى لا يزال يقيم فى القاهرة وأن تقنعه بإعطائها ورقة يؤكد بها أنها يهودية ابنة يهودى ويهودية ..



كل هذا وأمها لا تعلم شيئا .. إنها متأكدة أن أمها لن توافق على هجرتها .. ولن تسكت .. وزوجها العميد فهمى جار الله قد يساعدها على السفر ولكنه لا يمكن أن يساعدها على الهجرة .. وإذا عرف أنها عادت يهودية يقبض عليها ..

التى كانت تعرف كل شىء هى صديقتها خديجة .. ولم تكن خديجة تحس بأن صديقتها ياسمين تنتقل من دين إلى دين ومن بلد إلى بلد .. أبدا .. إنها تنظر إلى العملية كلها على أنها

عملية تجارية .. فتح سوق جديدة .. ستكون مليونيرة هى وصديقتها .. وسيكون لها شركة فى باريس .. وشقة فى الشانزليزيه .. وربما قصر فى غابة بولونيا .. لم تكن تحس بشىء يتغير فى ياسمين .. إنها هى هى .. وستبقى هى هى .. مصرية مسلمة وأم سامى وفريد .. حتى لو هاجرت وحتى لو جعلت من نفسها يهودية .. لا شىء يتغير فيها .. إنها فقط متطلبات العمل .. شطارة ..

وطلبت خديجة وياسمين من صديقاتهما العربيات أن يحولن أموالهما إلى باريس .. بالدولار .. كانتا تدفعان نفقات إقامة الصديقات فى مصر نظير تحويل المبلغ إلى فرنسا ..

ولكن صديقات البترول لم يكن يهمهن كم تدفع خديجة وياسمين وكم يدفعن لهما فى باريس .. كل شىء يتوقف على شطارة خديجة .. وياسمين .

وعندما وصلتا إلى باريس فى المرة الأولى .. كانت ياسمين تذهب وحدها إلى الجمعية اليهودية .. واستقبلوها على أنها جاءت تعلن توبتها وتعود إلى أصلها . إنها عندما يحين موعد أيام عيد الغفران تستطيع أن تصلى صلاة «كل النذور» أو «كول ندريه» وهى الصلاة التى تعفيها من كل وعودها والتزاماتها وارتباطاتها السابقة .. وتعفيها من الإسلام .. وتعفيها من مصر .. وتعفيها حتى من زوجها العزيز ..

وقال لها ايليا كوربيل الذى أصبح مسئولا عنها فى الجمعية :

– لماذا تريدين الإقامة هنا .. لماذا لا تعودين إلى إسرائيل ..

وقالت وهى تستعين بكل خبثها :

– إنى أستطيع هنا أن أحس بإسرائيل أكثر ..

وقال ايليا فى دهشة :

– كيف ؟

وقالت ياسمين وهى تغريه بذكائها :

– إنى أملك رأس مال كبيرا .. أستطيع أن استخدمه هنا وأرسل أرباحه إلى هناك ..

ولمعت عينا كوربيل بالطموح اليهودى وقال بعد أن سألها عن تفصيل رأس المال الذى تملكه :

– فى هذه الحالة يجب أن تدخلى فى شركة .

ووافقته ياسمين ووعدته أن تدخل فى الشركة . ووعدها أن يضمن لها الحصول على الإقامة وحق العمل فى باريس وتركته بعد أن تركت له خمسة آلاف دولار .. مصاريف .. لا شىء يتم فى باريس بلا مصاريف ..

وكانت قد سألت كوربيل عن شقيقها ايزاك .. ايزاك راؤول.. كيف تستطيع أن تصل إليه .. لقد تركهم فى مصر منذ أكثر من خمسة عشر عاما .. وآخر خطاب أرسله إليهم كان من باريس وقال فيه إنه سافر إلى نيويورك .. ولكنها لا تصدقه .. لقد ذهب إلى إسرائيل ولم يكن يستطيع أن يقول ذلك فى خطابه .. وأن المخابرات فى مصر تفتح كل الخطابات خصوصا التى ترد من الخارج .. بل إنه وقع الخطاب باسمه كمسلم .. خالد ..

ومن يومها ولم يرسل لهم كلمة ..

ولم تسمع عنه كلمة ..

ولم يكن يستطيع أن يتصل بهم وهو فى إسرائيل وهم فى مصر .. ولكنها الآن حرة .. إنها فى باريس .. وتستطيع أن تتصل بأخيها حتى لو ذهبت إليه فى إسرائيل .. ولكن كيف تجده ..

ووعدها كوربيل بأن يتصل بالجهات التى تستطيع أن تدلها على أخيها .. وقد مر شهر دون أن يدلها على شىء وهى نفسها لم تكن تهتم كثيرا .. إن إحساسها بأخيها أصبح كأنه احساس بصديق الطفولة .. مجرد ذكرى حلوة ..

وكانت ياسمين تقول كل شىء لخديجة .. ولكنها لم تقل لها إنها وعدت كوربيل بالدخول معه فى شركة .. وجدت أن من الأفضل أن تبعد خديجة عن هذا الموضوع .. إنها شركة يهودية فقط ..

وكانت ياسمين تغطى رأسها كل صباح وتذهب للصلاة فى الكنيس اليهودى . ولم تكن فى داخلها مخلصة فى هذه الصلاة ولكنها كانت تتعمدها كأنها تريد أن تقنع يهود فرنسا بأنها يهودية مثلهم .. وكانت مع خديجة تتضاحكان وهى تردد أمامها تقاليد الديانة اليهودية .. وقدمت لها خديجة كوب قهوة باللبن وصرخت ياسمين ضاحكة :

- لا يمكن لقد أكلت اللحم .. وانت تعلمين يا أختى اننا لا نستطيع أن نجمع بين اللحم واللبن ..

وأخذتا تتضاحكان .. إن تقاليد الأطعمة اليهودية تحرم فعلا الجمع بين اللحم واللبن .. حتى أن اللحم عندهم لا يطهى

بالسمن ولا بالزبد إنما فقط بالزيت النباتى .. ولكنها تقاليد لا يتمسك بها إلا غلاة المحافظين .. وياسمين نفسها تسخر منها .. إنما فقط تريد أن تضحك ..

وفى باريس استطاعت ياسمين هى وخديجة أن تتعرفا بشخصيات كثيرة كانتا تتعمدان اختيارها وكان كوربيل يدلهما على هذه الشخصيات .. شخصيات يمكن أن تستخدماها فى المشاريع التى تحقق طموحهما .. ووصلتا إلى حد أن اختارتا المحل الذى ستفتحان فيه البوتيك .. اختارتاه فى شارع الأوبرا ولكنهما أجلتا التعاقد عليه إلى أن تعودا إليه .. إن كل نساء العرب سيكن زبونات هذا المحل .. آلاف من الزبائن ..

وفى المساء كانتا تلتقيان بالعشيقات من نساء البترول .. إن عددهن فى باريس أكثر من عددهن فى مصر .. ومن هنا أكثر انطلاقا .. انهن فى باريس يعشن كالمجنونات مبهورات بمجرد الكلمة الفرنسية .. ومن هنا يرين أكثر .. ويتمعن ياسمين وخديجة أكثر .. ولكنهن يدفعن أكثر ..

لأن رصيد ياسمين وخديجة فى بنوك باريس تعدى النصف مليون فرنك ..

وكان يجب أن تعود ياسمين إلى مصر ..

تعود من أجل ولديها ..

وعادت بعد أن تركت كل شىء جاهزا لاستقبالها فى باريس ..

وتعمدت أن تطيل مدة إقامتها فى مصر حتى لا تثير الشبهات حولها وخصوصا شبهات أمها .. إلى أن قررت أنه

حان الوقت لتترك مصر إلى الأبد .. لن تعود .. واستطاعت أن تأخذ معها ولديها .. أن ابن اليهودية يهودى حتى لو ولد من أب غير يهودى وإن كان يعتبر ابن حرام .. وستقول لولديها أنْ أمهما يهودية وأنهما يهوديان .. إنهما لا يزالان صغيرين ولن يتغير فيهما شىء بانتقالهما من الإسلام إلى اليهودية .. وهناك سينسى المجتمع أنهما ولدا حرام .. ولدا أب مسلم .

وكانت مجرد صدفة أن سافرت ياسمين وخديجة قبل حرب ٦٧ بأسابيع .. ولكن من يدرى .. ربما يعتقد من يسمع حكايتها أنها كانت تعلم أن الحرب ستقوم ولذلك هربت .. وكأنها جاسوسة ..

وأمها زينب لا تستطيع أن تطمئن إلى عودتها حتى بعد أن انتهت الحرب وأصبحت تستطيع أن تعود ..

ولكنها لا تزال تكذب شكوكها وتنتظر ..

إلى أن فوجئت ..

لقد عادت خديجة وحدها ..

ورفعت زينب عينين صارختين إلى خديجة وهى واقفة أمامها تبتسم ابتسامة واسعة بعد أن قبلتها عشرات القبلات كأنها كانت فعلا فى وحشة إليها .. وقالت زينب فى صرخة مبحوحة :

– أين ياسمين ..

وقالت خديجة فى فرح كأنها تزف البشرى :

– لقد بدأنا العمل هناك ..

وأحست زينب برعشة تسرى فى كل عروقها وآلام تزحف

إلى مفاصلها وقالت كأنها على وشك أن يغمى عليها :

– والأولاد ؟

وقالت خديجة وفرحتها لا تفتر :

– ادخلتهما ياسمين فى مدرسة بباريس ..

وقالت زينب فى توسل وهى تزداد انهيارا :

– وحياة أمك .. احكى لى كل شىء بالتفصيل ..

وبدأت خديجة تحكى لها .. حكت لها كل شىء إلا أن ياسمين عادت يهودية .. ولكن زينب كانت تعلم أن ابنتها لا يمكن أن تحصل على الإقامة وحق العمل فى فرنسا إلا إذا عادت يهودية ..

وياسمين لها مطلب آخر ترجو أمها أن تساعدها فيه ..

إنها تريد الطلاق من زوجها عزيز فاضل .. لم يعد له مكان فى حياتها ..

وسقط رأس زينب على صدرها .. معنى هذا أن ابنتها لن تعود .. هاجرت كما هاجر ايزاك .. ولعلها بعد فترة تكون فى إسرائيل ..

ولكنها لا تستطيع مساعدتها فى التخلص من زوجها .. لقد سقطت مريضة بتصلب الشرايين وهى لا تستطيع مجرد أن ترى عزيز .. إنه يذكرها بابنتها التى ضاعت .. ولا تستطيع أن تطلب من زوجها فهمى جار الله أن يتدخل ليجبر عزيز على الطلاق لأنها لا تستطيع أن تصارحه بالأسباب التى تدفع ابنتها إلى طلب الطلاق ..

وتولت خديجة مسئولية طلاق عشيقتها ياسمين .. ولم تكن

مسئولية صعبة .. إن عزيز يعترف بالواقع .. فياسمين لن تعود وهو لا يستطيع أن يسافر إليها لأنه لا يزال تحت الحراسة ولا يستطيع السفر .. ومستقبل ولديه هناك أفضل من مستقبلهما هنا .. ثم إن ياسمين تدفع له خمسة آلاف جنيه لتساعده فى حياته فى مقابل الطلاق .. نفس المبلغ الذى أخذه أبوها من شوكت بك ذو الفقار ليطلق أمها ..

وتم طلاق ياسمين ..

أصبحت حرة من كل ما يربطها بمصر ..

وسمعت أمها زينب بأخبار طلاق ابنتها وهى راقدة مريضة .. ولوت شفتيها فى قرف .. هذه الغبية .. لعلها الآن تأمل فى زوج آخر .. لعلها تأمل أن تتزوج فى إسرائيل .. ومن يدرى .. ربما تزوجت رجلا من عرب فلسطين .. إن اليهوديات الشرقيات عرف عنهن ضعفهن إلى الرجال العرب حتى انتشر الزواج بينهن وبينهم وتدخلت حكومة إسرائيل والجماعات الصهيونية لتمنع هذه الزيجات التى ينتج عنها أولاد حرام .. أولاد من أم يهودية وأب مسلم أو مسيحى .. هذه الغبية .. كيف تتصور مستقبل ولديها فى إسرائيل .. إنهما هنا من الطبقة الغنية وينتسبان إلى عائلة عريقة .. كل الأبواب يمكن أن تفتح لهما .. ولكنهما هناك يحمل كل منهما لقب ابن حرام .. ويوضعان فى طبقة اليهود الشرقيين .. الطبقة الثانية بين اليهود كطبقة الزنوج فى أمريكا .. سيبقيان دائما فى أسفل تحت الأقدام .. لن يبرز أحدهما فى المجتمع الإسرائيلى .. لن يكون واحد منهما رئيسا للوزراء .. أو قائدا للجيش .. أو

صاحب سيطرة رأسمالية .. ليس بين اليهود الشرقيين فى إسرائيل من يصل إلى هذه المراكز ..

لكن ..

من يدرى ..

ربما ستبقى ياسمين العمر كله فى باريس ولن تذهب أبدا إلى إسرائيل ..

والأيام تمر ..

وزينب تزداد غرقا فى وحدتها .. والوحدة تثقل عليها حتى يعاودها المرض كلما شفيت منه .. ربما كان دواؤها فى خطاب تتلقاه من ابنها ايزاك أو من ابنتها ياسمين ..

ولكن ايزاك ضاع منذ سنوات طويلة .. وابنتها أرسلت لها عدة خطابات فى كلمات عائمة لا تقول شيئا .. خوفا من المخابرات المصرية التى تفتح الخطابات .. وربما اشتد هذا الخوف حتى لم تعد ترسل أى خطاب .. لقد كتبت لها فلم ترد .. ربما غيرت عنوانها .. ربما تركت باريس .. ربما انتقلت إلى إسرائيل .. لا تدرى ..

وكانت صديقتها خديجة تنقل لها أحيانا بعض الأخبار ..

ولكن خديجة أيضا ابتعدت .. لم تعد تراها .. ولم تعد تجدها إذا بحثت عنها .. ربما انتقلت خديجة لتقيم هى الأخرى فى باريس .. أو ربما حدث شىء قطع ما بينها وبين ياسمين .. من يدرى .. وابنتها هاجر .. إنها لا تزال متعالية عليها وتمادت فى تعاليها بعد أن أصبحت من سيدات السلك الدبلوماسى ..

وفى المرات التى كانت تعود مع زوجها إلى مصر كانت

ترفض أن تقيم معها وتفضل أن تقيم مع زوجها فى شقة يستأجرانها وتكتفى بزيارتها زيارات باردة لتحاسبها على نصيبها من ارث أبيها ..

ولكن ..

ربما كانت هذه هى طبيعة الشخصية اليهودية .. شخصية لا تتحرك إلا فى اتجاه مصالحها . والاتجاه الذى ليس لها فيه مصالح تتحول عنه .. لا قيمة أمام هذه الشخصية للعواطف .. العواطف هى مجاملات والمجاملات هى أيضا لا تعطى إلا للمصالح .. و قد جاء أبوها إلى مصر مع جدها من المغرب .. ولا شك أن جدها كان له فى المغرب اخوة أو أعمام أو أقارب ولكنه من يوم أن جاء وقد انقطعت كل صلات العائلة بالمغرب.. لم تسمع عن خطاب كتبه أبوها أو جدها إلى أحد فى المغرب .. وربما كان لها أقارب فى المغرب ولكنها لم يحدثها أحد عنهم أبدا ولا هى سألت عن أحد منهم .. وهى نفسها .. إنها منذ أعلنت إسلامها وقد قاطعت أختها حتى لا تذكر المجتمع الإسلامى بأنها يهودية .. واختها متطرفة فى يهوديتها وكانت مريضة وقد ظلت تتصل بها فترة والاتصالات تتباعد حتى انقطعت كلها .. إلى أن سمعت بعد سنوات من صديقتها ساره أن اختها ماتت .. رحمها الله ..

ربما انعكست هذه الشخصية .. الشخصية التى تغلب المصالح الواقعية على العاطفية .. انعكست على أولادها ..

ولكن ..

أقسى ما تعانيه هو فهمى جار الله ..

وتبتسم زينب فى مرارة .. إنه لم يكن أبدا زوجها .. هذا العقد العرفى لم يكن له قيمة إلا تغطية مظهرها ..

ورغم ذلك فقد كانت تقضى الأسبوع كله فى انتظار اليومين اللذين تراه فيهما .. الأحد والاربعاء .. وكانت كل أيامها اعدادا لهذين اليومين .. تفكر كيف تعد نفسها له كامرأة.. ماذا تحكى له .. وماذا تلبس له .. ماذا تقدم له .. وقد وصلت الخامسة والخمسين وهى لا تزال تحتفظ بكل أنوثتها وبكل حاجتها إلى رجل فى الفراش .. إلى جسد يأخذ جسدها.. وعندما كانت تمرض كانت تجمع حولها كل الأطباء ليعدوها ليومى الأحد والأربعاء حتى أصبحت باقى أيامها ملكا للأطباء .. بل أنها كانت تستقبله أحيانا وهى مريضة .. تتألم .. فتخفى عنه مرضها وتكتم آلامها وتقدم له أنوثتها ..

ولكن فهمى بدأ يتغير .. إنه يقول لها أنه موفد فى مهمة .. ويغيب شهرا كاملا .. ثم يعود دون أن تدرى أين كان ولا ماذا كانت مهمته .. ثم أصبح يغيب دون أن يخبرها .. شهرا وشهرين .. تعودت أن تتصل بسكرتيره .. وسكرتيره لا يقول لها شيئا .. ولكنه يقوم لها بكل ما تطلبه من الخدمات .. كأنه ينفذ تعليمات سيده ..

إلى أن بدأت تعترف لنفسها ..

إن فهمى يضيع هو الآخر ..

يهرب منها ليتفرغ لزوجته وأولاده ..

وابتسمت فى حسرة .. هذا حقه .. ولن تستطيع أن تسترده.. ويجب أن تعترف أنها شاخت .. إنها فى الستين ..

لم يعد يجد فيها ما يغريه .. ولم يبق فيها شيء يأخذه .. حتى ثراؤها الذى ينعم به أخذ منه ما يكفيه ..

ويداهمها أحيانا احساس عجيب .. لماذا لا تعود لوسى كما كانت .. لوسيان هنداوى .. تعود يهودية وتسافر إلى باريس وتعيش مع ابنتها ياسمين .. أو تسافر إلى إسرائيل لعلها تجد ابنها ايزاك وتموت وهو فى عينيها .. تموت فى الأرض المقدسة.. فى أرض الميعاد .. ولكن لا .. إنها لا تستطيع .. لقد بنت كل يوم من أيامها هنا .. فى مصر .. كل يوم بنته بنفسها.. كل يوم أطلقت فيه لمعة من النجاح .. والنجاح هو الحياة .. هو الوطن .. أينما نجحت فأنت فى وطنك .. إنها لا يجب أن تندم لمجرد أن أولادها تركوها وحدها .. إن ما أخذته من حياتها الصق بها من أولادها .. وستبقى هنا .. وتموت هنا .. وتدفن فى تراب نجاحها .

وقررت أن تترك الشقة التى تقيم فيها فى الزمالك وتؤجرها وتستقر فى بيت المنصورية .. لقد كانت تقيم فى الشقة لتكون قريبة من فهمى .. ولكن فهمى يريدها الآن بعيدة ..

وعاشت أيامها فى المنصورية تقضى كل يوم فى الاشراف على الزراعة والمنحل والبهائم .. وليس معها فى البيت سوى نعيمة وخضرة .. امرأتان من أهل القرية القريبة .. عجيبة .. إنها تحس بتقارب قوى بينها وبين نعيمة وخضرة .. تحس كأنهما تملآن كل وحدتها ..

وبدأت حرب اكتوبر ٧٣ ..

وسقطت تبكى كل يومها كعادتها فى كل حرب دون أن

تدرى لماذا تبكى .. ربما تتخيل ابنها ايزاك يقتل أخاه مدحت .. أو تتخيل ابنتها ياسمين وهى تقتل أختها هاجر .. وهى حائرة لا تدرى من ينتصر على الآخر ..

وتركز عينيها فى جزء على شاشة التليفزيون تتتبع وجود الأسرى اليهود لعل بينهم ابنها ايزاك .. إنها لم تره بين الأسرى .. لعله مات .. قتلوه .. قتله المصريون .. إنها مصرية.. إنها الأم التى قتلت ابنها .

واشتد بها الضياع حتى سقطت مريضة مرة أخرى .. وفى هذه المرة أصيبت بالشلل .. وتجمع حولها الأطباء .. وجاء فهمى وزارها مرة ثم تركها لنعيمة وخضرة ..



وهمت زينب أن تقوم من فراشها لتعود وتستمع إلى أخبار مفاوضات السلام فى محطات الراديو .. حتى لو تحقق السلام .. هل يعود إليها ايزاك .. هل تعود ياسمين .. هل تعود هاجر ..

وابتسمت ابتسامة مريضة وهى تتنهد كأنها تخفف عن نفسها .. لا .. لقد تركوها وحدها .. إنها تحس بإحساس الأم أنهم لن يعودوا ..

ومدت يدها تلتقط العكاز الذى تستند عليه وهى تقوم وتمشى فأفلتت منه يدها وسقطت على الأرض .. وصاحت :

– نعيمة .. خضرة .. تعاليا إلى ..

وحملتها نعيمة وخضرة ..

(تمت)

رقم الإيداع ١٥٤٤٨/٩٩
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0876 - 8